كرباج السماء

كرباج السماء

مجموعة قصصية

علي محمد محمود

كرباج السماء

اسم الكاتب: علي محمد محمود
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: وجيه أبو عادي
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: 2018 / 23013
الترقيم الدولي: 1 - 36 6610 – 977 – 978

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

جميع الحقوق محفوظة

القصة الأولى

ضجيج القلب

تلك قصة عابد زاهد، وضيف حلّ به على سفر

وهنا لا يعنينا إن كان الأمر محضَ خيال أم بالفعل حدث،

فما يهمنا هو استخلاص الحكمة والعبر.

بعيداً بعيداً في الصحراء، حيث المكان موحش ناءٍ، بعيداً عن صخب الحياة والناس

كانت هناك خيمة منصوبة، يعيش فيها حكيم زاهد، اتخذ خيمته مسكناً ومأوى..

ليس له في حياته سوى أغنام يرعاها، يشرب لبنها ويأكل لحمها، ويستولدها ليبقي على نسلها..

يرعى أغنامه على بعض العشب والكلأ الجاف مما نبت هنا وهناك، أو ما جلبته الرياح.. سقياه وإياها من بئر حفرها شيخ كان يسكن الخيمة قبله، يدعو الله حين يعجزه الطلب، ويخر ساجداً حين يأتيه المدد، رداؤه جلبابٌ أزرق خشن يكاد يتمزق من شدة البلى، لا يسمع هنا سوى صوت الريح وثغاء غنمه، أو صوته حين يدعو ربه.

سلواه حين يقوم مع الإشراق، يغرس قدميه في الرمال الباردة، يرقب الشمس في مطلعها، ليراها تسدل أنوارها على الكون والأرجاء، ويشم شذى النسيم في الصباح وهو يوقظ البيداء .

بخيمته فقط بساط في الأرض مفروش قد تهتك من الردى، وماعون وجرة ماء، يحيا دنياه عابداً زاهداً لا يبغي من الدنيا شيئاً، فقد بلغ من العمر أرزله، ينتظر النهاية، ليخرج من الدنيا راجياً من الله المغفرة .

وبينما هو على ذاك الحال، إذ حلّ به ضيف، انقطع به السبيل، وأصابه الإجهاد ولفح الهجير، فعقل دابته، ووقف على باب خيمته مستجيراً، ألقى السلام فلم يجبه أحد، وأعاد الثانية والثالثة، وما من مجيب، فالتفت حوله فأبصر على مرمى من الخيمة رجلاً طاعناً في السن، منكباً على قبر، فاقترب منه، متعجباً خروجه تلك الساعة والبيداء قيظ، وكذا متعجباً من وجود ذلك القبر في هذا المكان المتنائي، وجده جاثياً على ركبتيه، ورافعاً يديه ويبتهل إلى الله باكيا، راجياً لصاحب القبر الرحمة، وأن يشمله الله بعفوه.

اللهم أسألك رحمة بعبدك لقد عاش راجياً عفوك!

اللهم آته من لدنك رحمة فمن له يا رب غيرك!

فانتظره حتى فرغ، وسلم عليه وسأله المأوى وشيئاً من طعام قليل، فرحب به الحكيم الزاهد، وأخبره أن بخيمته ما يبغاه، وسارع بذبح شاة، وأحسن ضيافته، وأطعمه وسقاه، وقراه من الليإلى ثلاث، حتى تعجب الضيف من كرم الحكيم الزاهد، رغم ما رأى من شدة العيش، وما زاده إعجاباً، تقوى الرجل وزهده، فهو يطعمه قبل أن يطعم، ويسقيه قبل أن يشرب، جل كلامه ذكر، وأكثر صمته فكر .

وبين الحين والآخر يسامره ليقطع عليه غربته، وحين رأى الضيف ذلك الشظف، سأل الحكيم:

- أخبرنى أيها الشيخ الكريم ألا تستوحش ذلك المكان؟ وتشتاق إلى عيشة الحضر، حيث الطعام والشراب وألفة الإنسان؟

نظر إليه الشيخ وابتسم.

- حين تعلم ما أعلم، ستوقن أن الحياة هنا أسلم، أنتم تحبون الدنيا، والدنيا فانية، وأنا أحب الله، والله باقٍ، وستتركون ما أحببتم، وأنا لمن أحب ملاقٍ !

- زادك الله علماً وبارك في عمرك. هل لي أن أطمع في كرمك وأسألك سؤالاً آخر، أشغلني منذ أن رأيتك أول مرة.

هز الشيخ رأسه وأغمض عينه .

- تريد أن تسأل من صاحب هذا القبر الذي رأيتني عنده .

- نعم، هو ذاك؟

- حسناً يا بنيّ أخبرك، منذ كنت مثلك، كنت ألهو وألعب وأفعل ما أشاء، ولا أقيم اعتباراً لحرام ولا عيب، وكان يستوي عندي الخمر والماء، حتى خرجت يوماً مع أقراني نلهو ونصيد في الصحراء، فطاردنا فريسة حتى لاذت بالفرار، فتابعناها فأوت إلى تلك الخيمة وكان بها شيخ مسنّ، فسألناه الطريدة، فأعطانا إياها، وضايفنا يومنا إلى المساء، فرأيته بخيمته ذاكراً شاكراً بينه وبين الله أسرار، فشعرت بعظم جرمي، وشنيع فعلي، وبعدي عن ربي، فطلبت أن أجاوره، ويعلمني مما يعلمه.

فصاحبته سبع سنين، رأيت فيها فضل الله العظيم، ثم حان أجله، فغسلته، وكفنته، وصليت عليه، وفي القبر الذي رأيته دفنته، ومن بعده سكنت خيمته، وعاهدت الله أن أبقى على دربه وسنته.

فصمت الضيف، وتعجب من قصته، وأعجب بحكمته وبلاغته.

ثم أراد أن يساعده من حيث لا يجرحه.

- أتقبل مني أيها الشيخ أن أهاديك ثوباً من اثنين أرتديهما، ولعله يبقى ذكرى لديك مني؟

- بارك الله فيك يا بنيّ، ما يسترني اليوم يكفيني، وغداً أنزل به قبري.

وحين حلّت الليلة الثالثة، والتي سيكون صبحها الوداع بين الضيف والحكيم، طلب الضيف من الحكيم طلباً بعد أن مهد له كي يضمن أن لا يستطيع الحكيم له رفضاً.

- هل لي أيها الحكيم أن أطلب منك دعوة تدعوها لي؟

- ولمَ يا بني لا تدعو لنفسك، ليس بين الله وعبده وسيط، ألم تعلم أن الله أقرب إليك من حبل الوريد؟!

- ولكني أظنك ذا كرامة، وأخشى إن دعوت أنا، تحول ذنوبي بيني وبين رجائي .

- هذا يا بني من عطاء الله، يمنحه من عباده من شاء، اهجر الذنب، واترك العيب، ترى من الله كل خير .

- أسأل الله أن أكون من هاجري الذنب، وتاركي العيب.

ولكن دعوتي التي أرجو أن تدعو الله لي بها غريبة، ولها في نفسي إن أُجِيبت غاية.

- ما تلك الدعوة يا بني؟

- كلا، عدني أن تدعو لي بها، قبل أن أخبرك إياها.

- ابتسم الحكيم، إن كان الأمر ليس بحرام، وليس به عتب ولا ملام، سأدعو لك.

- لقد قرأت كثيراً في الكتب عمّا تداوله أهل الإيمان من خبر أن العصاة من البشر تنطق وتشهد عليهم يوم القيامة أعضاؤهم، وتثبت أفعالهم.

- نعم، هو كذلك .

- وكذا إن مرض من الجسد عضو، وأصابه الداء، تمنى له ودعا بقية الأعضاء بالشفاء.

- نعم، وذاك أيضا حق.

- إذن ادع الله لي أن أعرف كيف يتجاوبون.

نظر إليه الحكيم متعجباً ومستفهماً عن الطلب.

- ما الذي تعنيه، لم أفهم! ماذا تقصد؟

- أي كيف يتواصلون، وببعضهم يشعرون؟ وكيف يدعون لمن أصيب منهم ويتألمون؟

أريدك أن تدعو الله لي أن يطلعني على ذاك الأمر.

وكيف يتواصل القلب مع اللسان، وما رأي العقل وحكمه عليهم، وكيف يسيطر ذلك العقل على البقية، من ذراع وقدم وعينين؟

بُهِتَ الحكيم من الطلب، وتلعثم في الكلام، ونظر إليه لا يدري ما يقول.

- ما هذا الذي ترجو يا بني؟!

ما أعرف سابقاً أن حازه إنسان!

ظننتك تطلب مغفرة، تطلب رضواناً، أو حتى كأهل الدنيا تطلب مالاً وعزاً وسلطاناً، والله ما علمت أن طلبك هذا ناله إنس ولا جان، لقد طلبت طلباً لم أسمع بأحد وصل إليه، ولا بشر اطَّلع عليه.

ابتسم الضيف للحكيم.

- لا عليك، إن الله على كل شيء قدير، وإن أراد الله فالأمر كائن، وإن لم يرد فهي ذنوبي تقف بيني وبين بغيتي حائلاً، وقد وعدتني بالدعاء، أما استجابتها فدعها لله، متى تكون وكيف يشاء.

صمت الحكيم لبرهة، وطلب من ضيفه أن يمهله إلى الصباح، وإن شاء الله يدعو له.

ناما ليلتهما، والحكيم متعجب من طلب ضيفه الذي لم يُطلب منه من قبل، بل ولم يسمع به، ولكنه وعده بالإجابة، فالطلب ليس بحرام ولا مستهجن، ويعود إلى الله أن يهب من عباده ما شاء من علمه، وأخذ مضجعه واستغرق في نومه، وسمع الهاتف يناديه كمن يزجره.

يا هذا لِمَ لَمْ تدعُ لضيفك، أستكثرت على الله، أم بك الشك في قدره، أخبره أنَّا سنريه في نومه إِرَبَه، وليسارع بسداد دينه إن أتى قومه.

- فهبَّ الحكيم من نومه فزعاً، مستغفراً الله أن يكون شك في قدره، وجلس يستغفر الله إلى أن أشرقت الشمس، واستيقظ ضيفه، وبدأ يستعد للرحيل، فنظر إليه الحكيم مبتسماً.

- ألا تريد شيئاً قبل أن ترحل؟

- كلّا أيها الشيخ، لقد أحسنت ضيافتي، وجزاك الله خيراً على معروفك معي.

- ألم تسألني أمس دعوة؟ ما لك لا تطلبها ثانياً؟

- لقد رأيتك لم تشأ إجابتي، وخشيت أن أثقل عليك، ولا أخفيك سراً، لقد بت وخاطري مكدر.

فاحتضنه الحكيم، وشعر أن بينه وبين الله الخير، وأخذ يدعو الله له بأن يعلمه من لدنه علماً، ويكشف له من أسراره، ويعطيه من نعمه وأنواره.

فرح الضيف بدعوة الحكيم له، وتهلل وجه.

- هل لي يا بني أن أسالك سؤالاً؟

- نعم، نعم، سل ما شئت.

-هل أنت مدينٌ لأحد؟

- نعم أيها الحكيم، نعم، لقد عرض لي عارض، واحتجت مالاً، وقصدت رجلاً صالحاً أقرضني قرضاً حسناً، وقد خرجت في تجارة ورزقني الله منها الرزق الوافر، وإن شاء الله أقضي له دينه.

- اسمع يا بني ما أقول لك جيداً، ما إن تصل إلى بلدك، تسارع بسداد دينك.

فنظر إليه الضيف وقد اصفرّ لونه، لماذا أيها الحكيم؟ أسأموت قريباً؟

- ماذا دهاك يا ولدي؟ لا يعلم الغيب إلا الله، إنما هي رؤية رأيتها أن تسدد دينك.

نظر إليه الضيف وساوره الشك في تأويل تلك الرؤيا، أحان الأجل؟ أم من حسن قضاء الدين المسارعة والعجل؟

وأخبره أن قدر الله له الوصول سالماً يفعل، وسلم الضيف على الحكيم وودعه وعانقه وقبّله.

وسار الضيف إلى بلاده، مسروراً بدعوة الحكيم، وينتابه القلق من أن يكون الأجل قد حان، وصل الرجل إلى داره فحلّ ثيابه وتطهر وصلى لله شكراً أن رده إلى بيته سالماً وربح في تجارته، وأن قابل هذا الحكيم في طريقه، وبعد أن استراح وأكل وشرب، قام إلى صاحب القرض فشكره وسدد له دينه، وحين حلّ المساء وأقبل الليل، توضأ وتطهر وأخذ مضجعه، ونام على جانبه الأيمن، وذكر الله وأغمض عينه.

وأخذت تراوده سنة من النوم،

وشيئاً فشيئاً أصابه الوسن،

ومنه إلى هدأة الكرى، ولم يمر الكثير حتى أغفى.

ثم هجع، وسبح في النوم.

وسبح وسبح.

*****

ضجيج، ضجيج، ضجيج.

ضربات كطبول الحرب متلاحقة، على وقع نغمات متناسقة.

- ما هذا الصخب الذي يصم الآذان، ما ذاك الصوت العالي، مَنْ صاحب ذاك الصوت؟

- إنه أنا، أنا الملك، أنا القلب.

أنا الملك، مَن مثلي بينكم، بما أكنّه وعليه أعقد، أميل بالنفس تترنح كالثَّمِل، فهذا مغرم عاشق بجوى الغرام يبوح، وهذا حزين باكٍ عينه بالدمع تنوح، حيناً تراني كالمِرْجَل غلاً وحقداً، وحيناً أفيض حباً ووداً، حتى الإيمان لدي يزيد وينقص، وأفيض العين دمعاً، وأجعل المطروب يرقص، وقد أقود إلى النار، حيث الجحيم والظلام الحالك، والشراب من الحميم، والطعم رأس شيطان، مع كل قضمة ورشفة تندم على ما كان.

أو أسوق إلى الجنة، حيث الظل الظليل، والسقيا لبن وخمر، وماء سلسبيل.

وإذا بصوت يبدو منه الامتعاض معترضاً، طالباً الملك بالكفّ عن هذا، وبدأ الكلام منفعلاً..

- على رسلك على رسلك، من أخبرك هذا؟ إذًن أين أنا، وأين مكاني؟ أكل ما ذكرت يكون لمثلك؟ فما تكنه من خير بدوني يبقى ناقصاً، ولا ينال عليه كامل الأجر، وما أضمرت من شر فعقباه نكتة سوداء على مثلها تورث الرّان، وتضل الراشد عن الدرب، تباً لك أيها القلب، أما كفاك من أهلكت؟ فهذا عاشق من النوم حرمته، وهذا مكلوم على عزيز له أحزنته، ومنك القاسي كالحجر وأشد، واليوم بك الإيمان، والله أعلم بالغد.

- صه، صه، يا سليط، يا أرعن القول، أليست حصائدك من تكب الناس في النار، أليس بالإثم واللمز منك، يكره الرجل أخاه، ويعده من الأشرار، وبكلمة منك يحرم على الزوج زوجته، وتوغر الصدر، وتفقد الحكيم هيبته، أليس بكلمة منك يهوى الرجل في جهنم سبعين، أو ليس جرحك يفوق السيف والسكين؟! ألست من تعرف بالمشّاء النميم، وفي الخير مقلّ، وحالك دوماً عُتُلّ، وعند الظالمين كلمة الكفر لديك أقرب، وعلى المؤمنين قولك كلدغ العقرب.

-ثم سمع صوتاً رزيناً، الحكمة في ثنايا كلامه بادية..

- ما ذاك العراك وهذه الجلبة؟! أفي حيرة أنتم، لمن فيكم الغلبة؟ هلموا إلي لأحكم بينكم، وأريكم بالحق قدركم.

- اسمع أيها القلب، نعم لك الحق أن تزهو، فأنت مقر الإيمان لمن صدق، ومحط الأنوار والمعارف لأهل الحق ومن وثق، وتقود إلى جنات عدن، لمن أتى بما سبق، ولكن اعلم بل احذر.

- إن خالط ذاك الإيمان شرك، أو كان النفاق بالإيمان بديلاً أو انتابه الشك، فالنار مقراً ومقيلاً، حيث لا نفع ولا فلاح، بل هلاك دائم، وسعير قائم، وإن عبت سوءاً على اللسان، فما أخرج إلا من المكنون منك يغرف ويصب في الأذن إما تقوى، وإما مجون، واخلع عنك الحسد والغيرة والغل والريبة، فقد ترى ملك الموت بك حاضر بين نبضة وأخرى، إما بسوط عذاب، أو يأتيك بالبشرى.

والآن القول لك أيها اللسان..

لا تكن بالفحش منطلقاً، وإن رأيت القلب عليه منعقداً، فما أردى الكثير في المهالك إلا بما قلبه كن، ولسانه نطقَ. وإن أردت قولاً فأمهلني حتى أريك منه رشداً، فكم من قول لك كالسم الزّعاف، يجرح القلب فيخترق منه الشغاف، وألجم عليك العنان، فليس كل ما تعرف تريه للعيان، واترك اللمز، والنميمة، والغيبة، والبهتان، واعلم أن الإنسان أخو الإنسان.

ووسط هذا الصخب، إذا بضوء كاشف، لامع كالنجم، حاد كالسيف، يطلب مكانته،

فالتفت إليه العقل كالمكلوم من طاعن..

آه منكما ومما جلبتما، أرأيتما ما قيل في القلب من مدح وذم؟! وما يعرض له من فاترنبض وهيجان دم، وكذا ما أتى اللسان من قول، ما كان هذا لولا سهامكما، تنظران النظرة فتهيجا شهوة، أو تحقدا حسداً، فيمرض القلب، ويُخرج اللسان السيئَ والمُذم، أما كان منكم من غض عن الحرام، والحذر من يوم تذرفا الدم على ما كان.

فخفت الضوء وانكسرا، وفاضا يقطرا دمعاً.

- وأنتما أما حان أن تتكلما، أنتما يا من ألفتما التلصّص، أبدل الخير سماعا، رغبتما التجسس؟! فما بالكم إن غضب الله عليكم فأصمكم وأعدم سماعكم، فما هي إلا أيام تكر وتصدما بالواقعة، وتقولا مع البقية: أين المفر؟

- ونادى العقل في الجميع، ما دام الكل حاضر بقي لنا أن نرى أهل الخطى والبطش، فانتصبت القدمان، وارتفعت اليدان.

- اسمعا أهل البطش والخطى، فالكلام لكليكما.

- أهل الخطى.

- نعم، نعم، نحن ها هنا حاضران.

- إنكما تابعان لما وقر في القلب، فإن صلح كان المسير في الخير، وإن فسد كانت الخطى للردى. وانتهوا جميعا، كعب وعرقوب، وعقب وبوع.

ويا باطشي الجسد. .

- نعم، نعم، نحن هاهنا حاضران.

- ما قيل ينطبق عليكما، فإن القلب فسد، بطشتم جبارين، وإن صلح كانت الرحمة واللين، والكل سيشهد، عضد ومرفق وكوع.

ثم ارتفع صوت العقل محذراً.

بلاغ إلى الجميع كافة:

غضبة الله ليس لكم بها طاقة، اليوم تسمعون بها، وغداً ترونها حاقة، يوم لا يجدى أسف ولا دمع، يوم لا يغني فرد ولا جمع.

وإذا بالقلب تزيد نبضاته، والقدمان ترتعشان، واليدان تنتفضان، والعينان تذرفان الدمع، واللسان ينعقد.

وأخذ الجميع يستعيذ من سوء المصير، ويحثّ القلب على الانتباه والحذر.

- الحذرَ الحذرَ، فالأمر صبر ساعة، وتحين ساعة الأجل، دعنا نلقى الله لا ذنب ولا عتب.

- قام الرجل من نومه به الغبطة، وكثير من مشاعر مختلطة، فمن فرحة، لما علم، وسمع، ورأى، وأن استجاب الله دعاءه، ومن خوف لما رأى أن الأمر كمن على شفا حفرة من نار، فقام وتوضأ وصلى، وانتظر إلى أن لاح الصباح، وعزم على العودة إلى الحكيم فهو أولى الناس ليخبره بما رأى، وكيف استجاب الله دعوته، وكم هي الدنيا على الله لا تستدعي من البشر تلك المَقْتَلَة.

- وأخذ من الزاد ما يكفي طريقه، وشرع مسافراً إلى الحكيم، وبعد أن قطع الطرق والقفاروصل إلى الخيمة التي يسكنها الحكيم، رأى أمامها الأغنام تلهو كعادتها، فانطلق إليها وهو ينادي من قبل أن يدخلها.

- أيها الحكيم، سلام عليك، جئتك ببشرى، أيها الحكيم أين أنت؟

- ودخل الخيمة متشوقاً للقائه فوجده ملتحفاً ببرده الأزرق القديم، ومستلقياً على بساطه ويغط في سبات عميق، اقترب منه برفق ولين، وهمس في أذنه: أيها الحكيم لقد عدتُ إليك، هيا استيقظ، ما لي أراك تنام في ساعة لا تنام فيها.. أيها الحكيم! أيها الحكيم!

ولكن الحكيم لا يجيب، الحكيم لا ينطق، الحكيم مات.

لقد رحل إلى الملكوت حيث تكشف الحجب، الحكيم ذهب إلى الرفيق الأعلى.

وهالته المفاجأة، وأخذ يقلب في جسده، ويرفع رأسه وكفه، وحين تيقن أنه قد مات، انكب عليه باكياً، وأزرف كثير الدمع عليه.

وأخذ الرجل ينظر حوله، فأحضر ماء مما أعده الحكيم لسقيا أغنامه، وغسّله، وفي ثوبه الأزرق القديم كفنه، وصلّى عليه، وحفر له بجوار شيخه وأقبره، وأخذ يدعو الله له أن يرحمه ويعفو عنه، ويكرمه.

اللهم أسالك رحمة بعبدك لقد عاش راجياً عفوك!

اللهم آته من لدنك رحمة فمن له يا رب غيرك!

ثم عاد إلى الخيمة، وجلس فيها يبكي، وكيف أن الأقدار ساقته إلى ذلك الحكيم؛ لينهل من حكمته ويفوز بدعوته، ثم آثر أن يبقى مكانه في الخيمة، يعيش عيشته، وأخذ يرعى تلك الأغنام، وحمد الله على أن سدّد دينه قبل أن يستقر بخلوته،

ويسير على نهج الحكيم وسنته،

حيث الخلوة والبعد عن الدنيا،

عازماً أن يلقى الله على ما كان صاحبه،

وصاحب صاحبه.

****

القصة الثانية
كرباج السماء

فِي رِحْلَةِ الإنسان مُنْذُ مِيلَادِهِ إلى وَفَاته هُنَاكَ الْكَثِيرُ مِنْ ذَوي الْحُقوقِ عَلَيْهِ، وفي مقدمة هؤلاء والداه، فَالْأُمّ تأتي بِكَ إلى الدُّنْيَا وَالأب يَسْعَى أن يأتي بِالدُّنْيَا إليكَ،

وَدَوْمًا مَا يخفُت دَوْر الأب بِجِوَارِالْأُمّ رَغْمَ عِظَمِ دَوْرِهِ،

وَلَا نَشْعِرُبِهِ إلا حين يُفْقَدُ.

قال أبو الدرداء:

سَمِعت رَسُول اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: الْوَالِدُ أوْسَط أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَإِنْ شِئْت فَأَضِعْ ذَلِكَ الْبَاب أو اِحفَظْهُ.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِوَالِدِينَا،

وَذَوي الْحُقوقُ عَلَيْنَا.

******

بين يدي القصة

في أحد أحياء القاهرة القديمة، حيث تتشابه البيوت مع ملامح ساكنيها، فكلاهما يدُ الزمان عليه ظاهرة، ترى مساكن تضارع الزمن، والتي عليها أكل الدهر وشرب، فالقوم فقرهم دائم وكأن عليهم الضنك كتب، هنا البيوت بنيت بالحجر من طابقٍ أو طابقين، البعض يزينها شُرف خشبية أو ما يطلق عليه العامة (المشربيّة)، كذلك السُقف ألواح من خشب.

الشارع الكبير بالحي بمثابة الشريان الرئيسي، والذي يفيض بالبشر ليل نهار، على جانبيه الدكاكين ما بين علافة وعطارة وأقمشة وبقالة، يتفرع منه شوارع صغيرة تفضي إلى دروب أصغر وأزقة، كنهر يموج بالماء يخرج منه فروع تغمر وديان، كلما توغلت داخل الحي حيث الأزقة الصغيرة، رأيت الحال المضني، والأسر الفقيرة.

المنازل متلاصقة مصفوفة، يستند بعضها إلى بعض، بينها طرق ضيقة غير مرصوفة، تضم بين حناياها بشر شظف العيش لهم عنوان، فرقة الحال عليهم بادية، تراها في الوجوه الشاحبة، في الملابس البالية، والكل يمنّي نفسه بغدٍ يرفع عنه عناء ما يحياه، وينسيه قسوة ما لاقاه في الأيام الخالية.

وسط هؤلاء وعلى غرار أقرانه يحيا (أبو شهاب) ذلك الرجل البسيط، ذو الجسد النحيل والبشرة السمراء، طلِق المحيا باسم الثغر، لسانه حانٍ يفيض أدباً على القاصي والداني، وها هو الشيبُ قد افترسَ سَواد شعَرِه ولحيتِه، معلناً خريف العمر وأرزله.

يعيش أبو شهاب في منزلٍ من طابقين لا يشذ عمّا جاوره من منازل، من بساطة في البناء، أو ما يحوي من قلة متاع، ويسكن إلى جواره أخوه، والذى يمثل له سلوى حين يذهب إليه بين ليلة وليلة، عاش أبو شهاب في منزله البسيط واقترن بزوجته (أم شهاب)، تلك المرأة العروب، فرغم تقدم السن لا تزال ذات رُوح صبية وطلّة ندية، ولم لا؟ فقد كانت في صباها أمل الكثير من الشباب، وكأنها صيغت من الكواعب الأتراب، تلك هي أم شهاب، زوجة حانية وضع الله بينها وبين زوجها الرفاء وحسن العشرة والوفاء، حيث زوجها رفيق الدرب، لها محور حياتها وقوام بيتها، كانت له دوماً خير معين، فهي زوجته

شمس أول فرحته، تراها بالفعل كمطلع الشمس بهيّة، شابة فرعاء، أخذت من أمها الحسن ورقة الوجدان، ومن أبيها فيض الأدب الجمّ والحنان، وذاك ولده شهاب محطّ أمله في مقدم الأيام، حيث أوشك على إنهاء دراسته، ليصبح سند أبيه وعونه وتظهر ثمرته، رغم أن أسلوبه في الكلام فجّ، ولا يقيم اعتباراً لمن خاطبه صغيراً كان أم

كبيراً، ودوما تراه في إساءة الأدب زائد عن الحد، ورغم ذلك فدوماً ما يغفرُله أباهُ إساءاته، ويراهُ الحلم الذي ينتظر تحقيقه.

وكثيراً ما يسرح أبو شهاب بخيالِه مطلقاً لهُ العنان، لا سيما حين يخلد إلى النوم بأن عسى أن يكون شهاب عوضاً عما لاقاه من تعب، ولا ينتبه من هذا الحلم إلا على صوت زوجته صباحاً وهي تنادى عليه ليذهب إلى دكانه الصغير، الذي استأجره في الشارع الكبير، ليكون له مصدر رزق، يبيع في دكانه أقلام، وكراريس، ولعب وحلوى أطفال، ويقضى فيه فراغ يومه إلى جوار صديقه الشيخ عرفان والذى يحب (أبوشهاب)، ويحب فيه طيبته وعفويته، وكذلك أبو شهاب يحبه لحكمته وبلاغته، فالشيخ عرفان يجيد القراءة والكتابة ويهوى تصفح الكتب، وقراءة التاريخ والسّير، لذا ترى منطوقه دوماً يفيض بلاغة، يتاجرالشيخ عرفان في البخور والبن ولوازم العطارة، مما يحتاجه أهل الحي، أو من صادف عبوره من المارة، والشيخ عرفان إن لم يكن لديه من يبتاع منه، فهو لدى أبو شهاب يساعده أو يأنس بالحديث معه، وبالكاد يجني أبو شهاب في نهاية اليوم قليلاً من المال ما يسد به حاجته ويقوم بمتطلبات أسرته، بعد أن أصبح على المعاش، وأضحى والعيش كفاف.

وقد اعتاد أبو شهاب الاسيقاظ باكراً مع دقات الساعة السابعة صباحاً، ليستعد للذهاب إلى دكانه.

الفصل الأول

الزوجة: هيا يا أبا شهاب، اسيقظ، لقد جاوزت الساعة السابعة، واليوم بداية العام الدراسي.

هيا انهض، وانفض عنك هذا الكسل.

أبو شهاب: (من أسفل الغطاء يجيب) نعم نعم، لقد استيقظت، أيقظي شهاب، وشمس .

الزوجة: (مبتسمة وهي ترفع الغطاء عن وجهه) لقد استيقظا منذ الفجر، فرحين بأول يوم لهما في الجامعة.

أبو شهاب: (وهو ينهض من فراشه) حسناً، أعِدي لنا الإفطار وسأرتدي جلبابي وأخرج إليكم.

(يخرج أبو شهاب إلى صحن الدار، ليجد زوجته وأولاده في انتظاره على الإفطار)

شمس: (تنظر مبتسمة إلى أبيها وهو خارج إليهم) هيا يا أبي أسرع، اليوم بداية الدراسة.

الأب: صباح الخير أبنائي، كيف حالك يا شمس؟ كيف حالك يا شهاب؟

شمس: (تفسح المجال لأبيها ليجلس إلى جوارها) الحمد لله يا أبي، ما دمت بخير فنحن بخير.

الأب: ماذا بك يا شهاب ما لي أراك صامتاً؟!

شهاب: ألا تعلم يا أبي!

الأب: ألا أعلم! عما تتحدث يا شهاب؟!

شهاب: ألم أخُبرك منذ أيام أني بحاجة إلى نقود، كي أشتري ملابس جديدة تليق بالجامعة وهيئتي؟

الأب: نعم يا شهاب، نعم، وأخبرتك يا بني، ما إن تتوافر لدي نقود سأعطيك ما تريد، يا شهاب أنت سندي ولا أبخل عليك بشيء، ولكن يا بني أنت تعلم، منذ خرجت إلى المعاش والحال ضاق والعيش كفاف، ولولا ذاك المحل الذي استأجرته، لربما لم نجد ما يكفينا.

شهاب: أبي تَصَرف كيفما تشاء، لقد حفِظت كلامك هذا عن ظَهر قَلب، بَل قَد ملَلَته.

الأب: أهَكَذا أنت دوماً يا شهاب، تصُدني كُلمَا نَاقَشتُك في أَمَر!

شهاب: أليست تلك مسؤليتك أن توفر لنا ما نشاء! ورغم هذا وعلى قولك نحن نعيش عيش الكفاف.

- بدأ أبو شهاب يقاوم دمعاً لمع في عينيه وينظر إلى الأرض كي لا يلحظه أحد.

الأب: لعلك حين تنهي تعليمك وتعمل يا شهاب يكون الفرج على يديك بإذن الله، ورغم ذلك لا عليك.

احضر إلي اليوم في الدكان بعد دراستك، وإن شاء الله سأتصرف لك فيما تريد.

الأم: (زاجرة ابنها) ما لك يا شهاب! أهذا أسلوب تكلم به أباك، ألا تتأدب؟!

شمس: دعيه يا أمي لن يجدي الكلام معه نفعاً، تلك هي طريقته.

شهاب: -يأخذ في النهوض من على الطعام متذمرا- حسناً ما دام أسلوبي لا يروق لكم سأنصرف.

(تنظر شمس إلى أبيها فتلمح عبراته تتساقط، وبطرف جلبابه يحاول أن يداريها فتنهض إليه محتضنة إياه)

شمس: هون عليك يا أبي، ذاك أسلوب شهاب، أتلك أول مره يفعل هذا؟

الأب: لقد احترت في أمره يا ابنتي! لما هذه المعاملة؟ إن شهاب غليظ القلب.

الأم: لما كل هذا يا أبا شهاب، فهو لا يزال صغيراً، ولعله طيش الشباب.

الأب: طيش الشباب! شهاب لم يعد صغيراً، ابن عمه عماد أصغر منه بعامين، وهو لأبيه طوع ولا يعصي له أمراً.

شمس: (مهونة على أبيها ببسمة خفيفة) أولست أنا طوع أمرك يا أبي؟

الأب: نعم يا ابنتي نعم.

شمس: إذن فلتكمل إفطارك، ولا تهتم لهذا.

الأب: كلا يا ابنتي لقد شبعت، أو بالأحرى أشبعني شهاب، سأخرج إلى الدكان.

يخرج الأب إلى دكانه، يعلوه الهم، ليبدأ يوماً أصبح لا يختلف عما يلاقيه دوماً، فالأسى فوق الجبين مسطر، والأمل بولده أضحى كمن يرجو سحابة صيف تمطر، وفي طريقه يجد الشيخ عرفان ذاهباً إلى دكانه ليفتحه، فيسلم عليه ويشكو له مرارة ما يلقاه من شهاب، فيهون الشيخ عرفان عليه، ويخفف عنه حزنه بمعسول كلامه من مأثور القول.

الشيخ عرفان: دعك من هذا ولا تحزن يا أبا شهاب، عسى الله أن يهديه.

أبو شهاب: ما قولك يا شيخ عرفان لو أنت جلست مع شهاب وتكلمت معه.

وتروي له مما لديك من قصص وعبر، لعل قلبه يلين !

الشيخ عرفان: لا ضير يا أخي، فما أكثر الحكم والقول الرشيد، ولكن هيهات أن يجدي مع قلب عنيد، شهاب ولدك صعب المراس، ولكن أكلمه، فمن يدري؟

أبوشهاب: هو ذا يا شيخ عرفان، كلمه هكذا، فأنا لا أجيد ما تجيده من البيان.

الشيخ عرفان: لا عليك سأكلمه، عساني أرشده.

الفصل الثاني

(وفي الدكان يجاهد أبو شهاب، في إبعاد أيدي الأطفال عن الحلوى التي يعبثون بها، يمسك أحدهم فيتفلت منه آخر).

أبو شهاب: هيا، هيا، إن لم تشتروا فانصرفوا، لقد أرهقتموني ماذا تريدون؟ أحلوى من هذه أم تلك؟

تتعالى صيحات الأطفال بالضحكات، وهم يعبثون بالحلوى -كلا يا عماه- لن نشترى شيئاً، سنذهب إلى محلٍ آخر.

وأثناء صرفه للأولاد يمر من أمام الدكان أخوه وابن أخيه عماد، فيسلما عليه ويبتسما من عراكه مع الأطفال.

أبو عماد: (مسنداً يده على كتف ولده): أبا شهاب، كيف حالك؟

أبو شهاب: (يخرج إليهم متهلّلَ الوجه ومحيياً) تفضل يا أخي، تعالى يا عماد، إلى أين؟

أبو عماد: إلى المستشفى لإجراء بعض التحاليل، فحالتي كما تعلم ليست على ما يرام.

أبو شهاب:عفا الله عنك يا أخي، سامحني لم أستطع أن آتي إليك البارحة.

أبو عماد: خيراً يا أخي، هل هناك شيء؟

أبوشهاب: كلّا، كالعادة، شهاب ولدي يناكفني، فمنذ شب عن الطوق وأصبح سيئَ الطبع، لا يلين في الكلام، ولا يستمع إلى نصح.

أبوعماد: (يشير إلى أخيه بالسبابة لائماً) أنت من دلّلته كثيراً.

أبو شهاب: هي بضع سنوات أخُروينتهى من دراسته، ويحمل العبء عني فقد هرمت.

أبو عماد: إن شاء الله، نستأذنك يا أخي لنلحق بالمستشفى.

أبو شهاب: انتظرنى أغلق الدكان وآتي معك. .

أبو عماد: كلا، كلا، لا عليك إن معي ولدي عماد لا يفارقني. .

أبو شهاب: انتبه لأبيك يا عماد، لا تغفل عنه. .

عماد: (مبتسماً) لا تخف يا عماه، أنا له كظله.

- يتبع أبوشهاب أخاه وولده وهم في الطريق، ويلمح شهاب آتيًا إليه فيسرع إلى الشيخ عرفان ليخبره أن لا ينسى إسداء النصح إلى شهاب.

- وقبل أن يهم شهاب بالدخول إلى دكان أبيه يناديه الشيخ عرفان؛ ليدخل إليه.

الشيخ عرفان: مرحباً يا شهاب، كيف حالك يا ولدي لم أرك منذ فترة، أقبل يا بني أريدك. .

شهاب: مرحباً يا شيخ عرفان، أهناك شيء؟

الشيخ عرفان: أريد الحديث معك، فلم أجالسك منذ فترة.

شهاب: عذراً يا شيخ عرفان، أحتاجُ أبي في أمر عاجل.

الشيخ عرفان: انتظر يا شهاب، لا تكن عجِلاً، أقبل، أريدك.

يجلس أبو شهاب في دكانه يدعو الله أن يهدي ولده، ويكون كلام الشيخ عرفان شفاء لجفاء قوله وسوء فعله.

وبقي الشيخ عرفان يوجه الرسائل والنذر تصريحاً وتلميحاً كي يغير شهاب من طريقته مع من رباه، وشهاب يتظاهر بأنه يعي ما يقال، حتى ضجر منه وأخبره بأن كفى ما قيل.

شهاب: يا شيخ عرفان أطلت الحديث علي، فهمت أنك تريدني أفضل مما أنا عليه، أعدك بهذا، فرجاء اتركني.

الشيخ عرفان: انتظر يا شهاب سأخبرك بقصة جميلة، هل تعلم يا شهاب قصة الفرس والمُهر؟

شهاب: كلّا، لا أعرفها ولا أريد أن أعرفها، أريد أن أنصرف.

الشيخ عرفان: (مُبتسماً وهو يربّت على كتفه) سأرويها لك بعد أن تذهب لأبيك.

دخل شهاب على أبيه، وأخذ منه ما وجد من مال، وترصده الشيخ عرفان حال خروجه فأخذ يعيد ويزيد عليه الحكم، تلك قصة الفرس والمُهر، وتلك عبرة من سالف الدهر، ولكن هيهات هيهات، بقي شهاب كما هو سنة وراء سنة، وشهراً وراء شهر.

الفصل الثالث

((تمر الأيام ويتخرج كل من شهاب وشمس من الجامعة ويبدؤون العمل))

أم شهاب: يا أبا شهاب، هناك أمر أريد أن أحادثك فيه .

أبو شهاب: خيراً، ما هو؟

أم شهاب: ابنتك شمس (لحظة صمت).

أبو شهاب: ما بها، تكلمى، ما الأمر؟

أم شهاب: الأمر خير، هناك شابٌّ يريد خِطبتها .

أبو شهاب: (متهلل الوجه) خيراً خيراً، وهل هذا أمر يجعلك مُترددة؟

أم شهاب: أخشى مؤنة زواجها وتكاليف جهازها، والحال كما تعلم وأعلم !

أبو شهاب: الله المعين، ولكن أخبرينى من هو؟

أم شهاب: زميلٌ لها في العمل.

أبو شهاب: وماذا عن خُلقه وأسرته، من أين هو وأين موطنه؟

أم شهاب: لا أعلم عنه شيئاً، إلا أن شمس تثنى على أدبه وتمدح خلقه، وأن حاله لا يختلف عنا كثيراً .

أبو شهاب: عسى أن يكون إنسانا طيبا، وإن كانت أخلاقه على ما ذكرتى فهذا يُغنيه .

الزوجة: هل نُخبره أن يأتى بأهلِه، ونعرفهم عن قُرب؟

أبو شهاب: كلا، فليأتِ وحده أولاً لأرى الأمر، وإن توافقنا يأتي بأهلهِ، والله يأذن بالخير .

الزوجة: متى؟

أبو شهاب: فليكن الخميس القادم، هل أخبرتِ شهاب؟

الزوجة: كلا، وهل لي أن أُخبره قبلك!

أبو شهاب: (مبتسماً) حسناً، أرسلى لي شمس أسألها عن ذلك الشاب .

تذهب أم شهاب إلى غرفة ابنتها لتخبرها أن تذهب لأبيها، وهي منشرحة الصدر تتمنى أن تراها وقد استقر بها الأمر كزوجة في بيت من يحفظها، بعد أن بلغت وزوجها مِن العُمرِ عِتيا..

شمس: السلام عليك يا أبي، تجلس شمس أمام أبيها (ينتابها الخجل).. يحتضنها أبوها ويقبّل رأسها .

الأب: وعليكى السلام يا ابنتى.. أخبرتنى أمك يا شمس أن هناك زميلاً لكِ في العمل يبغي خطبتك .

شمس: (وقد ازدادت خجلاً على خجل، وأطرقت بناظريها إلى الأرض) نعم يا أبي .

الأب: كم كنت أتمنى يا ابنتي أن أرى هذا اليوم، حسناً أخبريني من هذا الشاب يا شمس؟

شمس: زميل معنا في العمل، يثني عليه الجميع، لدماثة خلقه وجم أدبه .

الأب: ما اسمه؟

شمس: فضل .

الأب: ألا تعرفين شيئاً عن أسرته؟

شمس: بلى يا أبي، فالحديث بيننا أغلبه حول العمل، ولقد سألني إن كان يمكنه أن يحضر إلى البيت للارتباط بي، فأخبرته أن هذا أمر ينبغي أن أحادث فيه أبي، ثم أخبرت أمي لتخبرك .

الأب: على بركة الله يا ابنتي، أخبريه أن يأتينا يوم الخميس، والأن أرسلي لي شهاب حتى أخبره .

تنهض شمس وتذهب لتنادي أخاها..

شهاب: هل طلبتني يا أبي؟

الأب: نعم يا شهاب، إجلس يا بني، أريدك في أمر .

شهاب: خيراً.

الأب: أُختك شمس، تقدم لها خاطب .

شهاب: حسناً يا أبي .

الأب: حسناً؟ ألا تسأل من هو؟ وهل نوافق أو لا؟!

شهاب: أعذرني يا أبي، أن لدي ما يشغلني، وعلى ذكر الأمر، قد أرتبط قريبا أنا أيضاً .

الأب: ترتبط؟! ترتبط هكذا يا شهاب دون أن تخبرنا؟!

شهاب: كلا كنت سأخبرك، هي زميلة لي في العمل وهي من أسرة ثرية .

الأب: (يتنهد ملء صدره) فلنؤجل أمر ارتباطك الآن، ولنتحدث في أمر أختك أولاً.

شهاب: حسناً يا أبي، ما المطلوب مني؟!

الأب: ما المطلوب منك؟! كلا يا ولدي لا شيء، هل يمكنك الجلوس معنا يوم الخميس لاستقبال خطيب أختك؟!

شهاب: نعم يا أبي سأحضر .

الفصل الرابع

مع حلول يوم الخميس يأتي زميل شمس إلى بيتها لمقابلة أسرتها، ويستقبله أبو شهاب من باب البيت مرحباً به، وشهاب يتأخر في عمله غير مكترث بما يدور في البيت .

الأب: أهلاً يا بني مرحبا بك، تفضل .

كذلك تسلم الأم على فضل، وتقضي الوقت جيئة وذهاباً، تعلوها الفرحة وتحضر ما جادت به الظروف من حلوى ومشاريب وتضعها أمام فضل وتظهر له الود والترحاب.

الأب: سمعتُ يا بني عن دماثة خُلقك، وجم أدبك، ما جعلني أرغبُ في مقابلتك، هلا حدثتني عن نفسك أكثر يا فضل .

فضل: اسمي (فضل الله) وينادوني فضل، وسأصدُقك القول يا عماه، فظروفي ليست بالميسورة، ولكني سأحاول جاهداً أن أسعد شمس، وأتمنى أن أكون عند حسن ظنك، ويشرفني الارتباط بابنتك .

تجلس شمس على سريرها في غرفتها، وتدخل عليها الأم مندفعة، متهللة الوجه..

الأم: مبروك يا شمس، خطيبك وأبوك يعلوهما البهجة والحديث بينهما ودود،

وشرح خطيبك لأبيك ظروفه واتفقا على أن يحضر وأهله الخميس القادم لخطبتك، مبروك يا ابنتي.

شمس: (محتضنة أمها) بارك الله فيكي يا أماه .

الأم: أرأيت أخاك وما فعله! إلى الأن لم يحضر، رغم تأكيد أبيكي عليه أن يتواجد للقاء خطيبك.

شمس: تلك عادة أخي يا أماه، دوما يغضب أبي، إما بالقول وإما بالفعل .

مع استعداد فضل لإنهاء اللقاء على أن يأتي بأهله يوم الخميس، يحضر شهاب ويسلم علي فضل وهو ينصرف..

الأب: (بعد أن ودعا فضل وانصرف) ماهذا يا شهاب؟! ألم أبلغك أن تحضر لقائي مع خطيب أختك، لما لم تتواجد؟

شهاب: اعذرني يا أبي لم أستطع، كان لدي الكثير من العمل .

الأب: أهم من أمر أختك؟

شهاب: يا أبي أخبرتك أن لدي ما أشغلنى، وأنا الأن مرهق وأريد أن أنام، أراك غداً .

الأب: (ينظر إلى شهاب وهو يذهب إلى غرفته غير مكترث بوجوده) لم يا ولدي هذه المعاملة معي أَلست بأبيك؟!

شهاب: يا أبتِ أُريد النوم.. هلا تركتني .

الأب: يجلس الأب على الأرض بصحن المنزل ممسكاً رأسه بيديه..

لله الأمر من قبل ومن بعد، آهٍ على خسارتي فيك يا شهاب .

الفصل الخامس

الأب: كم تغمرني السعادة يا ابنتي كلما علمت أنها أيام قلائل وتكونين في بيت زوجك، ويطمئن قلبي عليك.

شمس: وكم سيكون صعباً علي يا أبي مفارقتك، وكم هو ألمي لما عانيته في تكاليف زواجي فقد أرهقتك الأعباء .

الأب: كلا يا ابنتي فهذا واجبي، ولقد فعلت ما فعلت، والفرح يغمرني .

شمس: (تنظر إلى أبيها ضاحكة) وليكن في علمك يا أبي سأتيك كل أسبوع أطمئن عليك وأتناول العشاء معك كما كنا نفعل دوما .

ينظر الأب إلى شمس وبدأت عيناه تدمع..

شمس: (تقبل يد أبيها) كم أنت عظيم يا أبي، رغم ظروفك تحاول جاهدا أن تسعدنا، علينا أفنيت عمرك وما وافينا شكرك .

الأب: كم أحب طريقتك في الحديث يا شمس، تذكرني بالشيخ عرفان حيث الحكمة والبيان..

شمس: (تبتسم وهي تحتضن أبيها) إبنتك يا أبي، ولكني أريدك أن تخرج من حالة الحزن تلك، التي تحياها دوماً يا أبي.

الأب: ألا تعلمين سببها يا شمس؟!

شمس: (وبلهجة تملؤها المرارة) نعم أعلم يا أبي، شهاب .

الأب: (يطرق الأب بعينيه إلى الأرض، يعلوه الغم ويكسوه الهم) نعم شهاب، حلمي الذي ضاع، دوما يسيء معاملتي، ولا أشعر أني أبوه، قلبه على قاسٍ، أحيانا ينتابني شعور أنه يخجل كوني أباه .

الفصل السادس

شهاب: أريد أن أحادثك في أمر يا أبي.

الأب: تفضل يا شهاب، عسى أن يكون خيراً.

شهاب: أخبرتك سابقاً أني أريد أن أتقدم لإحدى الزميلات بالعمل، للارتباط بها.

الأب: نعم يا بني، وأرجو أن تكون أحسنت الاختيار، فالزواج ميثاق غليظ .

شهاب: نعم يا أبي، فهي من أسرة غنية وأبوها ذو ثروة طائلة، وسيرفع عني الكثير من الأعباء .

الأب:أبوها ذو ثروة طائلة! أهذا ما جذبك إليها يا شهاب؟ ما هذه المعايير التي تنظر إليها يا بني؟!

شهاب: (ضاحكاً) تلك هي معايير اليوم يا أبي، لا تنظر إلى ما تزوجت عليه أمي، أو كما زوجت أختي وها هي وزوجها يعملان ليل نهار حتى يوفرا الحد الأدنى لحياة كريمة، فالمال اليوم هو أهم شيء يا أبي لأنه أصبح كل شيء.

الأب: كلا يا شهاب أنت مُخطئٌ، راحة البال يا ولدي أهم، طمأنينة النفس يا ولدي أهم .

الإحساس بالرضا أهم يا شهاب .

شهاب: كل هذا يوفره المال يا أبي، أبي كل ما أريده منك هو أن تأتي معي لخطبتها.

الأب: حتى وإن كنت غيرراضٍ عن هذه الزيجة يا شهاب؟

شهاب: إذن تريدني أن أذهب بمفردي يا أبي .

الأب: (بنبرة كلها حسرة) كلا.. سأتي معك يا شهاب، ولكن تذكر أني نصحتك وأرشدتك .

يتزوج شهاب من زميلته في العمل تاركاً الحيّ الفقير الذي نشأ به في كنف أبيه، لينتقل للعيش في أحد الأحياء الراقية حيث المساكن الفارهة، والشوارع الواسعة، والمراكز التجارية الكبيرة، وكل سبل الراحة والرفاهية والتي كان لوالد زوجته الفضل فيها، ويعيش أبو شهاب وزوجته بمفردهما في المنزل. وغدا شهاب لا يأتيهما إلا إن صادف مروره بالحي أو حلت نائبة .

الفصل السابع

كعادته يعود الأب من عمله بالمحل مرهقاً في المساء، ليتناول ما تيسر من طعام، ويسأل زوجته عن أحوال بيته وعن ابنه وابنته، وفي هدوء الليل ومع اقتراب الفجر، قَرْعٌ شديدٌ بالباب، يقوم الأب من نومه فَزِعاً، نحو الباب مُهَرْوِلاً، وزوجته خلفه.

أبو شهاب: مَن؟

عماد: افتح يا عماه، أنا ابن أخيك .

أبو شهاب: ابن أخي! (يفتح الباب مسرعاً) ماذا هناك يا عماد؟ هل حدث لأبيك شيء؟

عماد: باكياً يجيب عماد، أبي توفي يا عماه .

أبو شهاب: ماسكاً رأسه بيديه.. لا حول ولا قوة إلّا بالله، إنا لله وإنا إليه راجعون!

يجتهد مسرعا أبو شهاب بجسده النحيل، الذي أصبح يترنّح حين يسير، ويهم إلى غرفته ليبدل ملابسه ويرتدي جلباباً، يحتفظ به لحين الخروج في زيارة أو عزاء ويجعله سترته...

أبو شهاب: أسرعي يا أم شهاب بإبلاغ شهاب وشمس بوفاة عمهم، على أن يسرعوا بالمجيء .

يتوجه الجمع إلى المقابر لدفن الجثمان، في يوم مشمس قَيْظ، الأب يسير في حالة يرثى لها حيث الكبر مع مصاب الأخ، يحاول جاهداً أن يسارع الخطى ليلحق بالنعش، ويسير حوله الأهل والأقارب، وكذلك حضر شهاب ذالك الحُلم الضائع، متوجهين نحو المقابر، يدفن الجثمان، ويبدأ أبو شهاب والأهل بالاصطفاف لأخذ العزاء من المشيعين، فالناس كثر والجو حار، وبدأ شهاب يشعر بالضجر، فَهَمّ بالانصراف بعيدا حتى ينتهي المشيّعون، وذهب ناحية أحد القبور النائية، وأسند ظهره على إحداها راجياً أن ينتهي هذا اليوم سريعاً، وهو على ذاك الحال لاحظ أن هناك من ينظر إليه من خلف أحد المقابر، نظر إليه شهاب فعرفه، إنه الشيخ عرفان، وقد بدت عليه هو أيضا مظاهر العجز .

شهاب: أهلا شيخ عرفان، هل هناك شيء؟

اقترب منه الشيخ عرفان ولم يجب، وأخذ يتفرّس وجه شهاب لبرهة، كالذي يقرأ شيئًا يكرهه..

الشيخ عرفان: (وبلهجة أقرب إلى التحذير) يا شهاب كادت الشمس أن تغيب، فاحذر .

شهاب: كادت الشمس أن تغيب! ماذا تعني؟

الشيخ عرفان: يا شهاب أَلِن الكلام للمُسِنّ، عليك أفنى عمره، والآن يئنّ .

ثم انصرف الشيخ عرفان وغاب بين القبور، وأخذ شهاب يفكر فيما سمع، وبدأ يستوعب أن المقصود أبيه، وطال تفكيره فيما قاله الشيخ عرفان.

ثم قطع شرودَه قرعُ نعال المعزّين، حيث تفرقوا بين القبور، بعد أن انتهى العزاء على القبر، فعاد مسرعاً نحو أبيه، وانصرف معهم إلى دار عمه ليتمّموا مراسم أخذ العزاء في المساء!

الفصل الثامن

لم يكد يمرعام على وفاة العم، حتى بدأت حياة الأب تنذر بالنهاية، فالصحة المعتلة وفقد الأخ جعله يزداد علة على علة، وهجر شهاب له فاقم أحزانه وجعله كمن يرجو عفواً من سجّانه، وما هي إلا أشهر قليلة حتى لحق بأخيه إلى الرفيق الأعلى، وتأبى أم شهاب أن تعيش بمفردها ففي العام التالي يشيعونها إلى جوار من سبقوها..

ليتركا ابنه وابنته بعد أن استقل كلا منهما بحياته .

ويغلق باب الدار معلنا نهاية هذا الرجل البسيط وزوجته، وكذلك نهاية أمل لم يتحقق منه شيء، بل كان وبالًا عليه .

يرتقي شهاب في عمله، ويصبح مع مرور السنين ذا حيثية ومكانة، ورُزق بابنه الكبير حسن والصغير حسين، ويعمل جاهداً على توفير عيش رغيد لأسرته حتى يشعرهم بالرضا والسعادة .

ولكن رغم هذا فإن زوجته دومًا لا تشعر بالرضا، ولا ترى ما يفعله شهاب يلبي طموحها، ولا طموح ولديها، فهي من أسرة ثرية وترى ما يفعله شهاب معها لا يساوي شيئا مما كانت تحياه في بيت أبيها، ودوماً تشعره بالنقص وأن حياتها لدى أهلها شيء، وما تحياه معه شيء آخر، وسئمت

العيش معه، ومن أجل ولديها فقط تتحمّله، ودائمة الشكوى منه، وأغلب الأيام تقضيها في بيت أهلها.

وذات يوم عاد فوجد ولده الصغير في البيت بمفرده، فسأله:

- لما أنت هنا بمفردك يا بني؟

- ذهبت أمي وأخي إلى بيت جدي ورغبت أن أبيت الليلة معك يا أبتِ.

فرح به شهاب وظنها ليلة تسري عنه الليالي الحالكة التي أضحت دَيْدَنه .

تناول عشاءه مع ولده ثم خلدا إلى الفراش وأخذ شهاب يلاعبه .

حتى بدأ ولده يميل إلى النعاس فقال له:

- هلا حكيت لي قصة يا أبي، إن أمي دوماً ما تفعل ذلك معي.

- ابتسم شهاب.. لكني لا أجيد القصص .

- لما يا أبي؟ إن أمي تروي لنا الكثير، فشعر شهاب بالحرج، وصمت لحظة..

- حسناً يا ولدي سأحكي لك قصة الفرس والمُهر .

يحكى أن هناك فرسًا ومعه صغيره المُهر، عاشا في مرعى عشبه جافّ وقليل، ولكنه ظليل، فتمرد المُهر على الفرس، ورفض عيش الكفاف، وبدأ يتطلع إلى مراعٍ بعيدة، ومراراً حاول الفرس أن يرشده إلى ما فيه صلاح أمره وأن عليه ألا يخرج عن طوعه، ولكن المُهر أبي ونأى بجانبه،

ورأى عقله أرجح ممن أنجبه، حتى إذا شذّ كعادته إلى مراعٍ بعيدة ليست من بيئته، اصطاده صياد، فأتعبه وأشقاه، وحمّله فوق طاقته .

ثم سكت شهاب وغلبه دمعه..

فرفع ولده رأسه من على الوسادة ونظر لأبيه..

– ثم ماذا يا أبي؟

نظر شهاب إلى ولده، وقبّله على وجنته وربّت على ظهره وضمه إليه .

- ثم بقي كما هو يا ولدي لا يدري أهو سوء اختيار المرعى أم ذنب الفرس؟

فنظر إليه ولده وقال: يا أبتِ لم أفهم شيئا .

– كذلك يا بني المُهر لم يفهم، هيا، نم يا بني لقد تأخر الليل، أراك على خير صباحا .

وأصبحت تلك غالب حياة شهاب، ضجر وملل وغدا الهم رفيقه، وقته ما بين العمل أو في المنزل بمفرده يكترُ ذِكرى أيامٍ خلت .

وغدا يذهب إلى عمله كل يوم بتلك الروح المرهقة وقليلا ما يتحدث مع زملائه، حتى لاحظ من حوله تغير حاله عما كان، فاقترب منه صديق له واستأذنه في الحديث معه.

صديقه: ما لي أراك يا شهاب، منذ فترة لست أنت، دائم الصمت، كثير الفكر؟!

شهاب: (بابتسامة مصطنعة) كلا يا أخي لا شيء، لا تشغل بالك .

صديقه: يا شهاب إن كان الأمر خاصًا ولا تريد البوح به فذاك لك، وإن رأيتني صديقًا فلعلي أنصحك فيما أبدي لك .

شهاب: (متنهدا ملء صدره) حسناً يا أخي، سأخبرك لعلي أجد لديك سلوى عما أنا فيه، نفسي مرهقة، والهم يلزمني .

صديقه: لمَ يا شهاب لم؟ لمَ هذا؟ أنت والحمد لله تحيا رغد العيش، ولا تشكو عوَزًا، ولديك بيتك وزوجتك وأولادك، ما الذي ينقصك؟!

شهاب: تلكَ هي المشكلة، الزوجة والأولاد، لا يُوجد وفاق بيني وإياهُم، رغم ما ذكرته أنت آنفا من عيشة كريمة، ولكن دوماً بيننا خلاف، ما جعلني في هَم وضيق، ولا أشعر بلذةِ الحياة .

صديقه: ولمَ لا تتحاور معهم، لعل لديهم ما يكتمونْه نحوك؟

شهاب: (يضحك ساخراً سانداً ظَهره إلى الكرسي وينظر إلى أعلى) ما يكتمونه نحوي؟ يا أخي أنا أحدثك عن زوجتي وأولادي، منْ سخّرت لهم حياتي لأراهم سعداء، ورغم هذا لا أجد إلّا التعنت في المعاملة والصدّ، وعدم استشعارِما أقوم به من جهد .

(وبصوت متهدّج ومغالبا الدمع في عينيه) رغم أني ليس لي أحدٌ سواهم، فهم كل ما لديّ!

صديقه: لكنك أخبرتني سابقاً أن لديكَ أُختا شقيقة أليسَ كذلك؟

شهاب: بلى. لدي أخت شقيقة ولكني لم أزرْها مُنذ سنوات.

و(بلهجة ساخرة) لعلها نسيتني أو لم تَعُد هي الأُخرَى تَذكُرني .

صديقه: حسناً يا شهاب لدي اقتراح، وأرجو أن لا تأخُذَه بمحملٍ سيئ.

شهاب: تكلم، ما ذا تريد أن تقول؟

صديقه: لما لا تعرض نفسك على طبيب نفسي؟!

شهاب: طبيب نفسي! أتراني جُننت، أقول لك بي بعض الضغوط والهموم ولا أعاني اضطرابا في عقلي.

صديقه: اهدأ يا أخي.. حسناً حسناً لا عليك،، هناك أمر أخر وأظنك لن تمانع فيه.

شهاب: وما هو؟

صديقه: لمَ لا تزور شقيقتك، ولعلك تجد في زيارتها عزاء لما أنت فيه؟

شهاب: أختي! إني لم أرها منذ سنوات .

صديقه: ولمَ لم تزرها طيلة هذه المدة؟!

شهاب: أن أردت الحق هو تقصير مني، ولكن هي أيضا أصبحت متزوجة وفي بيتها ولها حياتها وشأنها .

صديقه: وهل هذا مبرّر لقطع صلة رحمك؟!

ينظر إليه شهاب مستغربا...

شهاب: نعم لقد قصّرت في حقها كثيراً، ولعلي قصرت في حق من هو أهم؟

صديقه: من هو أهم! تقصد من يا شهاب؟

شهاب: ها، لا لا، لا تشغل بالك، نعم سأذهب لزيارة شقيقتي .

صديقة: نعم يا أخي لعل ما أنت فيه من ضيق وغم سببه هذا، يا شهاب قطع صلة الأرحام من أسباب مُقت الله على العبد، ولا تدري من أين يأتيك السهم، يا شهاب كما تدين تدان، ولعلك قصرت في أمر، ويردّ لك فيما تحياه من غم .

نظر شهاب إلى صديقه وأخذ يردّد العبارة بينه وبين نفسه بصوت هامس: (كما تدين تدان، كما تدين تدان)!

صديقه: أنا أرى أن توثق علاقتك بأُختك وتصل رحمك، عسى الله أن يرفع عنك ما أهمك، ويصلح حال بيتك .

شهاب: حسناً يا صديقي، لعله كذلك، سأذهب لزيارة شقيقتي في أقرب فرصة .

الفصل التاسع

انتظر شهاب يوم راحته من عمله، وعزم على الذهاب إلى أخته في زيارة عسى أن يكون فيها عزاء عما يلاقيه من تعب، بسيارته انطلق صباحاً متوجهاً نحو منزل شقيقته، وطوال الطريق وهو يسترجع ذكرياته حين كان في منزل أبيه وكانت أيامه صفاء لا تبعات ولا هموم، وأخذت الدموع تترقرق في عينيه وتنهد بكامل صدره قائلا:

يرحمك الله يا أبي، كم أشتاق لأيامى معك، ها أنا جنيت المال ولكن أين راحة البال؟

وما أن وصل الشارع الذي تسكن به أخته حتى نزل من سيارته، وأخذ يتلفت يَمْنَة ويَسْرَةً ليتذكر البيت، فلقد مرت سنواتٌ كُثر منذُ كان هنا، وأخذ يسأل المارة بالطريق عن أخته وزوجها إلى أن أجابه أحدهم:

- نعم عرفتهم، لقد انتقلوا إلى العيش في وسط المدينة. فتحرك شهاب حيث وصف له الجيران إلى المكان الجديد، فوجده منزلا كبيرا على ميدان فسيح بسور وحديقة، وأعاقه الحارس فأخبره أن من بالمنزل شقيقته، وطرق الباب عليها .

شمس: منْ بِالخارج؟

شهاب: إنه أنا يا شمس، أنا شهاب .

شمس: شهاب؟ شهاب منْ؟

شهاب: شهاب أخوك يا شمس .

شمس: أخي!

فتحت الباب ببطء وهي تنظرمتشكّكة حتى تيقنت منه، ثم فتحت الباب على مصراعيه

وبفرحة عارمة، ومعانقة حارة، صاحت شمس، شهاب أخي، يا لَها من مفاجئة، يا لها من مفاجئة، مرحبا يا أخي.. وغلبتها الدموع وهي ترحب بأخيها.. مرحبا يا شهاب تفضل يا أخي تفضل بالداخل .

شهاب: كيف حالك يا أختاه. كيف حالك يا شمس، افتقتدك كثيرا .

شمس: آهٍ يا شهاب، طالت غيبتك علي، لم تزرني منذ سنوات .

شهاب: سامحيني يا شمس، مشاغل الحياة، أخبريني كيف حالك، وحال ولدك وزوجك؟

شمس: (بلهجة يملؤها الشوق) سأخبرك، سأخبرك بكل شيء، ولكن أريد أن أطمئن عليك أولا، ماذا عنك وعن حياتك وبيتك وزوجتك، أظنك أصبحت ملء السمع والبصر يا شهاب؟

شهاب: (متنهدا) الحمد لله، الحمد لله على كل حال .

شمس: طريقتك غير مريحة يا شهاب! ما الخطب؟ أليس بيتك وأبناؤك بخير؟!

شهاب: هم بخير، بالنسبة لهم فهم بخير.

شمس: هم بخير! إذن الأمر معك؟

شهاب: الأمر يطول شرحه يا شمس، سأحكي لك كل شيء، ولكن أخبريني عن حياتك أنت وبيتك.

شمس: الحمد لله، فضل زوجي الآن افتتح مكتبا للاستيراد والتصدير، وترك وظيفته السابقة، والأمور جيدة والحمد لله، وصالح

ولدي في الجامعة وأحيانا يساعد أباه في المكتب، ويتولى الأمر عن أبيه حين يسافر إلى الخارج.

شهاب: وأين هو لم أرَه منذ كان طفلاً .

شمس: خرج لينهي بعض الأوراق لأبيه، وعلى وشك العودة .

وأثناء تبادلهم الحديث يقرع الباب بلا توقف، قرعٌ متواصل..

شمس: تبتسم شمس في وجه أخيها حين رأت في وجهه القلق من الطرق...

لا تقلق، هذا هو صالح وتلك طريقته .

صالح: يدخل مسرعاً مقبلا يد أمه...، مرحباً يا أماه .

شمس: ادخل يا صالح لدينا مفاجئة!

صالح: مفاجئة؟

شمس: خالك شهاب هنا .

صالح: خالي! أهلا وسهلا. مرحبا يا خال.. كيف حالك يا خالي، لم نرك منذ سنوات.

شهاب: محتضنا ابن أخته.. كيف حالك يا صالح، كيف حالك يا ولدي، لقد أصبحت رجلاً .

يجلس الثلاثة ويتبادلون الأحاديث، ثم يهم صالح مستأذنًا أمه وخاله بالخروج .

صالح: اعذرني يا خالي سأضطر للخروج والعودة سريعاً.

شهاب: لقد أتيت للتوّ، ماذا هناك؟

صالح: هناك بعض الأمور لأبي، سأتممها وأعود سريعاً .

شهاب: أحسنت يا صالح، اذهب وافعل ما أمرك به أبوك .

صالح: مقبلاً يد أمه وهو خارج، لن أتأخر يا أماه .

شمس: في انتظارك يا بني .

شهاب: يبتسم وهو ينظر إلى صالح يقبل يد أمه.. لقد لاحظت شيئا أريد أن أسالك عنه يا شمس .

شمس: تفضل يا أخي .

شهاب: ولدك صالح قبّل يدك وهو آتٍ وكذلك حين خرج، أهو معتاد على هذا؟

شمس: -ضاحكة- وماذا لو رأيته وأبوه هنا، تشعر أنه لم يره منذُ أمد .

شهاب: بارك الله لكما فيه يا أختاه .

شمس: والآن ألا تُخبرني ماذا بك يا شهاب؟

شهاب: حسناً، سأخبرك، زوجتي وولداي يا شمس، يسيئون عشرتي، رغم أني أوفّر سبل العيش الكريم لهم، وكل ما تشتهيه الأنفس عندهم .

شمس: ولما يا أخي؟! إن كنت معهم على ما تقول، فلمَ الجفوة، فأنت الأب والزوج!

شهاب: نعم يا شمس، رغم كوني الأب والزوج ولا أمنع عنهم شيئًا، إلا أن الأمر كما أخبرتك .

شمس: (تستند برأسها إلى الخلف على الأريكة وتغمض عينيها، وتصمت لبرهة).. حسناً يا أخي، إن كان الأمر كما تروي، فالمشكلة ليست بهم، يبدو أن هناك أمرًا ما، وأنت لم تفطن إليه .

شهاب: أمر ما! ولم أفطن إليه؟ ماذا تقصدين؟ تكلمي يا شمس .

أخذت أخته تنظر إليه وتطيل النظر..

شهاب: لكي أصدقك القول يا أختاه أنا ما أتيت إلى هنا اليوم إلا لعلي أجد لديك ما يزيل عني ما أنا فيه، ويبدوا أني وجدت ضالتي، تكلمي يا شمس.

شمس: أنت يا شهاب، أنت السبب يا أخي، أنت لا هم.

شهاب: أنا! كيف؟

شمس: نعم يا أخي، أنت السبب، أبوك يا شهاب، معاملتك لأبيك، هذا ذنب أبيك يا شهاب.

(وبعد أن كان جالساً مستوياً، أحنى رأسه إلى ركبتيه، وأمسكها بكلتا يديه، وأخذ ينصت دون أن يتكلم، وأخذت أخته تطرق على مسامعه ما يؤلمه).

لقد قاسى منك كثيراً، كم عانى منك يا شهاب، إني لأتذكر كثرة شكواه منك، وكثيراً ما كنت أخبرك حين كنا صغاراً أن يا شهاب لا تكن غليظا معه، ولكنك كنت دوماً لا تعبأ بما أقول.

شهاب: -رفع رأسه ونظر إلى أخته- نعم يا شمس، لقد أصبتِ كبد الحقيقة، إنه لدوماً يأتيني هاجس أن ربما كان هذا جزاء ما كان مني في حق أبي، ولكني كنت أعاند نفسي بأني لم أقصر معهم، وفعلت لهم أقصى ما أستطيع.

شمس: (بلهجة قاطعة) وأبوك أيضاً وفّر لك ما يستطيع قدر جهده، رباك وعلمك وانتظر منك رد الإحسان بالإحسان، ولكن لم يجده، بل وجد نكرانًا، وحتى أنا يا شهاب أختك وصلة رحمك.. وقاطعها بكاؤها فلم تكمل.

شهاب: -قام إلى إخته مقبلاً رأسها- سامحيني يا أختاه، نعم لقد أخطأت في حقك، وحق أبي من قبل .

شمس: لا عليك أخي، سامحني إن كنت انفعلت عليك .

شهاب: كلا، بل سامحيني أنت، وليسامحني أبي، فلعل ما أنا فيه جراء معاملتي له..

شمس: حسناً يا أخي، حاول أن تصلح الأمر مع زوجتك وولديك قدر المستطاع .

شهاب: أتمنى يا شمس. عسى الله أن يهديهم .

شهاب: أريد أن أقترح عليكِ شيئا يا شمس.

شمس: تفضل يا أخي .

شهاب: أريد زيارة قبر أبي .

شمس: اذهب يا شهاب، لعله يهوّن عليك ما أنت فيه، أتحب أن آتي معك؟

شهاب: كلا، سأذهب بمفردي.

وانصرف شهاب من بيت أخته مودعًا إياه، على وعدِ بتكرار زيارتها، فقد زادته تلك الزيارة جلاء للأمور وكشفاً لما هو مستور..

الفصل العاشر

يتوجّه شهاب إلى المقابر والتي بنيت على هيئة غرف تعلو فوق الأرض، في دروب مصفوفة درب يليه درب، الصمت يطبق على المكان، إلا من صرير الريح يهزّ أوراق الشجر، وعلى الأرض تساقط ما جف منه وبالأرض انطمر، وكأنها تحاكي من بالقبور رقد.

وَلَجَ الصفوف واحداً تلو الآخر، إلى أن اقترب من قبر أبيه، وحين رآه اغرورقت بالدمع عيناه، وأخذ يخطو نحو القبر ويقترب، وكلما اقترب ازداد الدمع في عينيه، وأضحى كالسيل المنهمِر، وبدأ يدعو لأبيه تارة ويطلب الصفح تارة، وتذكر ما كان منه من عقوق، واستشعر ظلمه، وأخذ يسترجع كلام أبيه، وإرشاده له ونصحه، دون اكتراث منه، وذرفَ دمعاً كثيراً، إلى أن انهار رباط جَأْشِه، وذبلتْ جفونه من سيل دموعه، فجلس أمام القبر، وأخذ ينتحب ويردد.

- سامحنى يا أبي، لقد أخطأت سامحني، هلا رددتَ عليّ يا أبي، هلا خرجت يا أبي، أبتاه قد أخطأت، أبتاه قد ندمت، أهٍ لو تعود الأيام يا أبي، ولم يشعر بنفسه إلا ورجل واقفٌ خلفه، يربّت بكفه على كتفه!

قم يا بني، قم، اهدأ واسترجع، فالأمر مضى وانقضى .

لم يأبه شهاب لكلامه، وظل على حاله، فأعاد الرجل مقاله:

قم يا بني، فقد غابت الشمس..

انتبه شهاب إلى العبارة، ونظر خلفه ليرى من هذا .

وإذا برجل عجوز قد بلغ من العمر أرزله، يستند إلى عصاه ويكاد ينتصب..

نظر شهاب إلى الرجل للحظة، وحدّق في عينيه .

- ألست أنت الشيخ عرفان؟ هو أنت، ونهض واقفاً، وبيديه قبض على كتفيه .

- أنت من سيخرجني مما أنا فيه، فقد أصابني الغم والهم، لقد تعبت.

يستند الشيخ عرفان بكلتا يديه على عصاه، ومحاولاً قدر جهده أن يقيم ظهره، و نظر إليه وهزّ رأسه .

- تعبت! وأين من كان أمله فيك معلق، تركته يرحل والفؤاد منك ممزق، لمَ لم تراعِ تعب من في القبر، عليك انحنى ظهره، وكان ينتظر ولو للخاطر جبر، أتت بك أمك إلى الدنيا، وحاول هو أن يأتي بالدنيا إليك، وأنذرتك السماء عقابا، ليس له سبيل إلا الصبر، وما اعتبرت إلا حين حلّ الداء، وما انتبهت إلا حين ذقت كرباج السماء .

شهاب: نعم صدقت هو ذاك، إنه لكرباج.. ولكن أما من سبيل للخروج مما أنا فيه؟

لقد ضاقت عليّ نفسي، وأصابني ما أصابني .

الشيخ عرفان: أتأتي اليوم ترجو عفواً؟! أما كان هذا والدهر كان صفواً، تلك حقوق ومن الظالم تسترد، فدعوة المظلوم سياط من لهب، على الظالم تنزل ولا تزل، إلى أن يعفو من ظُلم، أو من العقاب يستوفي من ظَلم، بذاك حكمت قوانين السماء من الأزل .

شهاب: (وقد عاد يجلس على الأرض، سانداً خديه على كفيه، وهو ينظر إلى قبر أبيه)

- و ما دام المظلُوم قد غاب، فعلي أن أستوفي العقاب.

الشيخ عرفان: ادع لأبيك بالرحمة، واطلب من ربك المغفرة، وصل رحمك، فذاك آخر ما تبقى .

بقي شهاب على جلسته، واستمر يبكي مترحماً على أبيه، ومتحسراً على نفسه، وهو يردد:

ليت الأيام تعود يا أبي.. ليت الأيام تعود يا أبي!

النهـــــاية

القصة الثالثة

روايـــة التابــوت

الفصل الأول
مرارة العيش

في إحدى قرى الصعيد بجنوب مصر توجد قرية (كوم الصعايدة) والتي تعاني كما يعاني أغلب قرى الريف من فقرٍ آسر.

فالقرية بها القليل من الخدمات، والإهمال في هذا القليل من الخدمات جسيم، والفقر ينشب مخالبه في الجميع.

وعلى عادة أهل القرى تجد الكثير منهم يعملون بالزراعة، إلا فئة قليلة ممن نالت قدرا بسيطا من التعليم والذين نجحوا في العمل كموظفين في بعض المهن البسيطة كمكتب البريد، أو الوحدة الصحية التابعة للقرية.

أمّا الشباب الصغير فالكثير منهم تسرّب من التعليم، فترى أغلبه يعمل بأشغال هامشية، كالمحلات أو المقاهي داخل القرية، ونتيجة للضّنك التي تحياه القرية فالكل يبحث عن وسيلة ينتشله من هذا البؤس القائم، والكثير يفكر في حلم الثراء السريع.

وراجت في القرية رواية أنها كانت قديمًا يسكنها الفراعنة كحال الكثير من القرى المصرية، وأخذت تنتشر فكرة البحث عن الآثار كبوابة للخروج من الفقر والعبور إلى واقع أفضل.

وأصبحت الآثاروالتنقيب عنها، حديث المقاهي في القرية، ومن يردد أن فلانًا عثرعلى خبيئة مدفونة أسفل منزله، وهذا وجد تمثال من ذهب، وكل من بدا عليه شيء، ولو النذر اليسير من مظاهر النعمة يعزونه إلى الآثار!

ومن أهل القرية وعلى شاكلتهم في فقرهم، ذلك الشاب (عربي) ذو العشرين عاما، والذى يعمل بمقهى في وسط القرية وأحيانا أجيرًا يضرب بالفأس لدى من يملك أرضا، حيث لم ينل سوى دبلوم زراعة لم يشفع له في العثور على وظيفة، وكذلك لا يملك أرضا ليزرعها، ولا يملك من حطام الدنيا إلا القليل من المال، ادخره من العمل في المقاهي والعمل أجيرا بالفأس، وعربي شابٌ طويل القامة، جسده نحيل، أسمر البشرة، شعره أجعد وقصير، تقرأ حاله من وجه وجلبابه الرث، متزوج من ابنة عمه (أمل) والتي تحسن عشرته وترجو رضاه، وهي شابة تصغره بعامين، شابة مليحة ممشوقة القوام، بيضاء البشرة، وأمل شابة بروح طفل، الكلمة تؤذيها والبسمة ترضيها، تأمل دومًا أن يأتى اليوم الذي تتخلص هي وزوجها من أسر الفقر .

وقد أنجبت (عامر) رضيعها الذي لم يبلغ عامه الأول، والذي يمثل لها وزوجها حاضرهم ومستقبلهم..

يعمل عربي ليلا في مقهى بوسط القرية، ودومًا ما يسمع من روادها القصص التي انتشرت في القرية عن من وجدوا الآثار وتغيرت حياتهم وانتقلوا من حال إلى حال.

فلا تكاد تمرّ ليلة إلا ويسمع من هذا أو ذاك عن من وجد دفينة فرعونية، أو تمثال أو تابوت أو آنية ذهبية.

وتلاعبت في رأسه تلك الفكرة، لم لا أبحث أنا أيضا عن الآثار لعلني أجد ما يكفيني بل ربما يغنيني، ما دام غيري وجد فلم لا أجد أنا أيضا.

وقرر أن يستشير الحاج (إبراهيم) فهو يكاد يكون عاملا مشتركا في كل الحكايات التي تروى على المقهى، وهو رجل بلغ قرابة الخمسين من العمر، متوسط الطول، ذو بطن كبير، أصلع الرأس وخمري البَشَرَة، حاصل على دبلوم تجارة، يرتدي القميص والبنطال، ويعمل بالوحدة الصحية التابعة للقرية.

الحاج إبراهيم دوًما يشعرك أنّه من العالمين ببواطن الأمور.

تجده حين يجلس إما يصحح لهذا قصة وقعت، أو يشير على هذا بنصيحة، أويجعل هذا يعدل عن فكرة به شطحت.

والحاج إبراهيم دوما تراه على المقهى بعد العشاء، يطلب من عربي كوب الشاي، ويجلس ليسامر من يجده فأغلب روادها أصدقاؤه، وأقرب أصدقائه هو الأستاذ حسن مدرس الدراسات الاجتماعية والذي لا يفقه سوى الحديث عن التاريخ، ودومًا ما يسخر أصدقاؤه من حديثه هذا،

لكونه أصبح لا يسمن ولا يغني من جوع، فالكل يبحث عن المال، ولا يعنيهم تاريخ أو جغرافية، يلتف الجميع ليلا حول الحاج إبراهيم ليستمعوا إلى رواياته التي لا تنضب حول من اغتنوا من الآثار، رغم أنّه دوما يذكر أنّه قيل له، فهو لم يرَ شيئا.

أخبر عربي زوجته بفكرة التنقيب عن الآثار بمنزله، فأشارت عليه بأن يتمهل فإن بالأمر مخاطرة، وقد يضيع ما ادخره لمقبل الأيام، ومن هذا الذي أخبره أن بمنزله أثرا، أو أكّد ما يتناوله الناس في القرية من خبر، ولكن عربي قد نوى بالفعل وعزم على تلك الخطوة معللا أن الكثير عثر على الآثار فلم يتوقف الأمر عنده .

وطلب من زوجته حين يبدأ في الحفر أن تذهب ليلا إلى بيت أبيها للمبيت وتعود صباحا، حتى ينتهوا من التنقيب، فوافقته زوجته رغم عدم قناعتها بالأمر وجدّيّته.

وأخذ يتحين الفرصة، حتى يجد الحاج إبراهيم بمفرده، وفي ليلة بعد أن انفض جلساء الحاج إبراهيم، اقترب منه وأخبره برغبته في التنقيب عن الآثار أسفل منزله لعله يجد شيئا مما يتحاكى عنه الناس، ويكفيه عناء العمل بالمقهى، وكذا الإجارة والضرب بالفأس .

فنظر إليه الحاج إبراهيم وهزّ رأسه، كمن يتمعّن في الأمر، وأخبره أن الأمر لا يعدو كونه مغامرة، وان وجد شيئا تضحك له الدنيا، وإن لم يكن

فقد خسر مجهوده وماله لكثرة التكاليف ما بين أجرة من يحفر وكذا أجرة شيخ يرشد، وطعام يطعم .

وإن عثر على أثر سيكون لهؤلاء فيه نصيب، وسيكتفون بالأجرة إن لم يكن هناك شيء، ونصحه بالتروي في الأمر ودراسته جيدا، فسارع عربي وأجابه بأنّه قد عزم على فكرته ولديه مبلغ ادخره سينفقه على ما نوى، وليكن ما يكون، وطلب منه أن يدله على ما ينبغي عليه عمله ليشرع في البحث والتنقيب بمنزله..

حين رأى الحاج إبراهيم الإصرار في كلام عربي أخبره أن عليه أن يستعين أوّلا بشيخ حتى يقرأ له التمائم ويكتب العزائم ويؤمن المكان من رصد الجان، وعليه استأجار عاملين للحفر، واتفقوا على تقسيم ما يجدونه أو يتحمل فقط أجر مجهودهم إن لم يعثروا على شيء.

طلب عربي من الحاج إبراهيم أن يبحث له عن أحد المشايخ الذين يثق بهم، وبالفعل قام الحاج إبراهيم بالاتفاق مع (الشيخ علام) والذي معروف عنه أن له في الأمر باعا، ويستعين بالبخور والعزائم وترتيل الآيات والكثير من الطقوس .

والشيخ علام رجل بلغ من العمر أرزله فقد ناهز السبعين عاما ولكن ذهنه حاضر وتراه حسن الهيئة، فجلبابه الأبيض نظيف دومًا، والشال مسدول على رأسه، والسبحة لا تفارق يده.

اجتمع الشيخ علام مع عربي وأخبره بما مطلوب شراؤه من بخور وأعشاب وما يلزم، وليبدؤوا التنقيب مطلع الأسبوع القادم وسيجلب له عاملين يعرفهم ويتعامل معهم، لهم خبرة في التنقيب والبحث عن الآثار، ولديهم أدواتهم من فؤوس وسلالم وما يحتاجونه، ويكون للشيخ علام إن وجدوا شيئا الربع وللعاملين الربع ويحصل عربي على النصف، تلك هي الحصص التي دومًا يتّفق عليها الشيخ علام، وافق عربي على الاتفاق، وأصبح الجميع على أهبة الاستعداد مطلع الأسبوع المقبل لبدأ أول ليلة في التنقيب.

مع أول ليلة منتظرة لبدء الحفر تذهب زوجته للمبيت لدى بيت أبيها، ويحضر الشيخ علام ومعه العاملان، وهما رجلان قويا البنية يبدو عليهما الجدية والصرامة يحملان أدوات للحفر وسلما خشبيا، يدخل الجميع إلى بيت عربي ويبدأ الشيخ علام بالتجول داخل المنزل ليحدد مكان النقب، إلى أن استقر أن الحفر سيكون بوسط الدار لكونه متسعًا وكذا سهولة خروج ناتج الحفر من تراب، أو خروج ما قد يعثروا عليه من أثر.

يُخرج الشيخ علام من شنطته قطعة من القماش ويبسطها أرضا، ويجلس عليها ويخرج البخور ويشعل فيه النار حتى عبق المكان، ثم أخذ يتلو آيات من القرآن، وأدعيه للتحصن من الجان، والأرواح التي قد تحيط بالمكان، هذا وعربي والعاملان يجلسون حوله وكأن على رؤوسهم

الطير، صمت تام حتى ينتهي الشيخ، ثم سكت الشيخ وأشار إلى العاملين بيده أن ابدؤوا الحفر، وحدد لهم المكان الذي سيبدؤون منه .

ظل عربي طيلة هذه الفترة ينظر ويراقب إلى أن قام الشيخ علام ونفض ملابسه، ووضع قطعة القماش في حقيبته، وقال لعربي: هيا بنا إلى الخارج ودعهم يعملون .

يسير الشيخ علام مع عربي واضعا يده على كتفه، وفمه قرب أذنه ويهمس إليه قائلا:

- اتركهم قرابة الساعة أو ساعتين وعد إليهم بالطعام والشراب وسيعملون حتى مطلع الفجر .

- نعم يا شيخنا، لكن كم سيستغرق الحفر حتى نجد شيئاً؟

- تقصد نجد أو لا نجد، فالأمر ضربة حظ وقد أخبرتك من قبل .

- نعم نعم، ولكن كم سنبقى هكذا؟

- قرابة الأسبوعين، حتى نصل إلى عمق يمكننا من تحديد هل هناك آثار أو لا.

يسير عربي مع الشيخ علام حتى قارعة الطريق ويودعه على أن يتقابلا كل ليلة بعد العشاء، ليقرأ التحصينات، والأدعية قبل الحفر.

ويأخذ عربي طريقه إلى بيت عمه حيث توجد زوجته، فيجدها تجلس في صدر المنزل تطعم أباها ذلك الرجل الضرير الطاعن في السن،

والذي دومًا جالسٌ على أريكته في صدر المنزل يأتي إليه أبنائه بالطعام والشراب، إلى أن يغلبه النعاس فينام مكانه .

سلّم عربي على عمه وقبّل يديه، فهو يحبه ويرى فيه صورة أبيه الذي حرم منه صغيرا، ويعطف عليه لكبر سنه، جلس عربي إلى جواره وأخذ يلاطفه في الكلام، وزوجته جالسة تنظر إليه وهي تطعم أباها، إلى أن شعر أن الكلام ذو مغزى، ويحتمل أكثر من معنى، واستمر عمه في الحديث إليه .

- ماذا عنك وعن أحوالك يا عربي؟

- بخير يا عماه، الحمد لله .

- الخير في الرضا بقضاء الله يا ولدي، ومن رضي بقضاء الله وقدره أعطاه الله خيرا مما انتظره .

نظر عربي إلى زوجته وأشار إليها أن تخرج إلى عتبة الدار ليكلمها .

- هل أخبرتِ أباك بالأمر؟

- نعم .

- ولماذا؟!

- أنسيت أني سأبيت لديهم طيلة أسبوعين! ماذا أقول لهم؟!

نظر إليها عربي ممتعِضا وتركها ذاهباً إلى العاملان في المنزل .

مرت الليالي، ليلة تلو ليلة على رتابتها، لا جديد اللهم إلا أن هوة الحفر تزيد ليلة بعد الأخرى،

مع حلول الليلة الرابعة عشرة يتحين عربي انتهاء الحفر، ليرى هل يصبح الحلم حقيقة، وتنتهي هذه الأيام المريرة التي يحياها، أو يكون الحظ العاثر رفيقه كالمعتاد.

يأتيه الشيخ علّام بعد العشاء، كما اعتاد طيلة الليالي الماضية، يتلو بعض الآيات والأدعية وينصرف، ويقف عربي على شفير الحفرة التي أصبحت بعمق أربعة أمتار واتساع قرابة المترين وكله شغف أن تمر الليلة ويرى بشرى.

يقوم عاملا التنقيب بالنزول في الحفرة متدلّين على سلم خشبي، أحدهما يحفر والآخر يرفع ناتج الحفر ليلقيه بإحدى غرف البيت ثم يتناوبان المهام هذا مكان ذاك.

وكحال كل ليلة، هناك الطعام في منتصف الليل وبين برهة وأخرى يخرج العاملان من الحفرة ليستريحا، بقي عربي طيلة الليل يراقب التنقيب، فلم يخرج ثم يعود اليهم كل فترة كعادته، استمر معهم يحدوه الأمل في العثور على شيء، وكلما ازداد الحفر عمقًا كلما انتظر بشارة من العمال بأن هناك جديدا، وكل فترة يسأل أحدهما حين يخرج من الحفرة: ألم تعثروا على شيء؟ ودومًا الجواب بالنفي، ومع اقتراب الفجر بدأ يتسرب إلى نفسه اليأس وأن الأمر لن يعدو كونه سرابا.

بعد صلاة الفجر يحضر الشيخ علام ليرى ما الخبر، فتلك هي الليلة الأخيرة، فأخبره العمال بأنهم لم يعثروا على شيء، ونظر إليه عربي والأسى يتملكه..

- لا يوجد شيء يا شيخ علام، أليس كذلك؟

- الأمر كما ترى يا عربي، لا توجد أي آثار .

جثى عربي على ركبتيه والهم يعلوه، وأخذ العمال يلملمون أغراضهم وأدواتهم ، وأخذوا أجرهم وانصرفوا .

اقترب الشيخ علام من عربي وأخذ يواسيه ودعا له أن يخلف الله عليه فيما أنفقه، وتركه وانصرف، وبقي هو يندب حظه، فلقد أضاع ما ادخره من مال، وأخذ ينظر إلى تلال التراب التي ملأت غرف المنزل، وينظر إلى الهوة المتسعة في وسط الدار، والتى كان يأمل أن تكون سببا في تحقيق آماله وإذا بها أضحت مقبرة لأحلامه.

وبدأ يستجمع قواه ويعمل على رفع تلك التلال ويلقي بها في الحفرة مرة أخرى لردمها وإصلاح ما أفسد، بقي هكذا طيلة النهار يرفع من هنا ويلقي هناك، إلى أن ردم الحفرة، وذهب إلى بيت عمه وأتى بزوجته وابنه، وأعاد الأمر كما كان، وكأن شيئا لم يكن، فلم يجنِ إلا ضياع ما ادخره والحسرة على فكرته وما جلبته عليه، وكذا نظرة اللوم التي أصبح يراها في عين زوجته .

عاد عربي مرة أخرى للعمل بالمقهى ليلا، والإجارة بالفأس لمن يطلبه نهارا، وكل ما رآه الحاج إبراهيم وهو يجلس وسط رفقائه بالمقهى يرمقه بعينه ويشعر بالأسى لما أصابه من ضياع ماله، وهبّت في رأسه فكرة فأسرع بطلب عربي وأخبره أن لديه فكرة فيها العوض عما لحقه من ضرر، فنظر إليه عربي وابتسم ابتسامة ساخره وتنهد، فأردف الحاج إبراهيم .

- انتظر واسمع، ولا تتعجل .

- حسنا، ما هي الفكرة؟

- أرأيت العاملين اللذين أحضرهما الشيخ علام للتنقيب في بيتك .

- نعم.

- ألم ياخذا منك أجر الليإلى التي عملا بها؟

- بلى.

- ولو كانا عثرا على شيء كانا سيكون لهما نصيب فيه.

- ثم ماذا يا حاج إبراهيم، كل هذا معروف، وانتهى الأمر.

- ماذا لو عملت مثلهم، أي تنقّب مثلهم وإن عثرت على شيء يكون لك نصيب، وإن لم تعثر تأخذ أجرتك.. تأمل عربي الكلام وصمت لبرهة ثم قال:

- ولكن لا أحد يعرفني حتى يستعين بي في هذا الأمر.

- لا عليك، أنا أتكلم مع الشيخ علام، وتنزل العمل معه.

- إن كان الأمر هكذا، فهو أفضل.

فرح عربي بالفكرة وأخبر زوجته ورحّبت بالفكرة، ورأتها أفضل مما أقدم عليه سابقا.

ولم تكد تمرّ ثلاث ليالٍ حتى حضر الحاج إبراهيم إلى المقهى وبرفقته الشيخ علام، حين رآهم عربي تهلل وجهه، وبادره الشيخ علام بالسلام والاطمئنان عليه، والتقطَ الحاج إبراهيم طرف الحديث ونظر إلى عربي وأخبره أن ينهي عمله باكرًا ويأتيه إلى بيته، وبالفعل ينهي عربي عمله سريعا ويستأذن من صاحب المقهى ويخرج خلف الشيخ علام والحاج إبراهيم، يطرق على الحاج إبراهيم باب داره، فيجده منتظره والشيخ علام، وسريعا يبدأ الحاج إبراهيم في توجيه الكلام لعربي.

- استمع إليّ يا عربي، لقد أخبرت الشيخ علام بما تحدثنا فيه، وأبدى موافقته لأن تعمل معه.

- ينظر الشيخ علام إلى عربي وهو مبتسم.. لقد وافقتُ على هذا بعد أن علمت ظروفك وما تكبّدته من مغرم بسبب ما أقدمت عليه من تنقيب في بيتك .

- نعم يا شيخ علام لقد أضعت ما ادّخرته وكما تعلم: الأمر كان سرابا .

- يعوّضك الله خيرا، ولكن اعلم أن العمل ليس معي، أنا ساكون حلقة وصل بينك وبين آخرين، تتعرف عليهم ثم تتعامل انت معهم،

وسيعرفونك خبايا العمل وأسراره وإن عثرتم على شيء سيعطونك منه ما يرضيك .

تنفرج أسارير وجه عربي ويكاد يشعر أنه لقي بغيته، بهذا يكسب أجر الليلة التي يعملها، أو يكون له نصيب في أثر قد يجده .

- والفرحة تملؤه يسأل عربى... أهم من قرية مجاورة لنا يا شيخ علام هؤلاء الناس؟

- ينظر إليه الشيخ علام محدّقا في وجهه، من أسوأ ما تفعله يا عربي في هذه المهنة هو كثرة السؤال .

- ينظر عربي إلى الحاج إبراهيم مستغربا ثم يعاود النظر إلى الشيخ علام، أهذا السؤال به خطأ؟

- يشير إليه الشيخ علام بالسبابه بشكل تحذيرى.. يا عربي إنّك سترى من الناس من هو من مصر ومن خارج مصر، ومن يتكلّم العربية ومن يتحدث بغيرها، فانتبه لحديثك.

كل ما عليك السمع والطاعة والتفاني في العمل ولك منهم أن يكفوك المؤنة وتعيش حياة كريمة .

- نظر عربي إليه مشدوها، وأومأ برأسه مجيبًا بالموافقة.

حاول الحاج إبراهيم تخفيف وطأة الحديث على عربي..

- كل ما عليك يا عربي هو أن تكون عند حسن ظنهم في العمل، ولا يعنيك من هم ولا من أي بلد أتوا، أليس كذلك يا شيخ علام؟

- بلى هو ذاك.

- حسنا، متى يتعرف عربي عليهم؟

- سآتى إليه في خلال أسبوع حتى أُهيئ له مقابلة معهم.

بقي عربي على دهشته مقيما لا يتحدث، ويستأذن الشيخ علام منهم ويتركهم سويا.

- ينظر الحاج إبراهيم إلى عربي متعجبا.. ماذا دهاك يا عربي، ما لك أصبحتَ كالأصم؟!

- ألم تسمع يا حاج إبراهيم.. يبدو أن الأمر ليس بالهيّن .

- نعم معك حق، لقد راعني الأمر حين قال أن منهم من هو مصري وغير مصري ومن يتحدث العربية وغيرها، ولكن ما شأنك أنت، أنت تعمل ليلتك وتأخذ أجرتك وتنصرف ولا يعنيك من هم.

- لا أدري، وأخشى أن أتورّط في شيء، دعني أرى الأمر وأفكر فيه يا حاج إبراهيم، أستاذنك للانصراف.

ينصرف عربي إلى بيته ويجد زوجته في انتظاره، فيقصّ عليه الأمر ويشكو اليها حيرته بل وخوفه، فلا يجد منها جوابًا شافيًا، فهي كذلك في حيرة بين أن يذهب ويستفيد أو تخشى عليه أن يتورط في أمرٍ ليس له به طاقة.

وبقي على هذا الحال مترددا، وقبل أن ينتهي الأسبوع، حضر إليه الشيخ علام ليلا في المقهى وأبلغه أنه سيأتيه صباحًا ليذهب معه لمقابلة من سيعمل معهم.

مع قرابة العاشرة صباحًا يحضر الشيخ علام ويصطحب عربي ويخرجان سويا ويستقلان سيارة أجرة، وما لبثت أن تحركت شيئا قليلا بعيدا عن مدخل القرية، حتى طالب الشيخ علام السائق بالتوقف، ودفع الأجرة، وأشار لعربي بأن ينزل معه، ونزلا منها وترجّلا نحو سيارة سوداء اللون هيئتها فخمة، تقف على جانب الطريق، وحين رأى سائق السيارة الشيخ علام نزل منها وسلم عليهما وركبا معه .

انطلق بهما السائق وأخذ يمازح الشيخ علام ويحاكيه، كل هذا وعربي ملازم الصمت، وأخذت السيارة تنحرف عن الطريق لتدخل في دروب جانبية في الصحراء ومن طريق إلى آخر ومن مدقّ إلى الذي يليه، حتى غدا لا يُسمع إلا صوت الإطارات تحُك الصحراء والهواء يصادم الرجاج وأصبحوا بمنأى عن العمار، ثم نزلا من السيارة أمام منزل محاط بسياج من حديد، نادى السائق على غفير داخل المنزل ففتح لهم الباب ودخلوا .

وإذا بهم في منزلٍ فسيحٍ فخيمٍ لا يتناسب مع هذا المكان الموحش في بيداء قاحلة، ووجدوا أربعة رجال يجلسون كحلقة يستمعون إلى رجل تبدو عليه مظاهر الهيبة والقوة، طويل القامة، أشقر، ذي لحية بيضاء،

بيده سيجار، ويرتدي بدلة فخيمة، ويتحدث العربية مطعمة بمصطلحات إنجليزية، وينتشر حولهم الكثير من الرجال ضخام الجثة وتبدوا عليهم الهيبة والصرامة يرتدون نظارات سوداء.

انتظر السائق والشيخ علام وعربي بعيدا حتى انتهى الرجل المهيب من حديثه، وقام جلوسه الأربعة وانصرفوا للخارج، ولمح الرجل المهيب الشيخ علام ورفاقه ينظرون إليه، فأشار اليهم بالتقدم وبادر الشيخ علام بالتحية والسلام، فرد عليه الشيخ علام السلام ملقبا إياه بالباشا، ثم استأذن السائق من الباشا وانصرف، وجلس الثلاثة معا، وسأل الباشا الشيخ علام عن هذا الشاب فأخبره أنه عربي الذي أخبرتك عنه ويريد أن يصبح من رجالك ويعمل لديك.. وهنا انفجر الباشا ضاحكا .

- أها، تذكرت ذاك الذي نقّب في بيته ولم يعثر على شيء.

ابتسم عربي، وهزّرأسه مع ابتسامة خفيفة، كمن يسخر من نفسه..

- هل عملت في التنقيب من قبل يا عربي؟

- لا يا باشا .

- إذن ينبغي عليك تعلم بعض الأمور قبل الانخراط معنا في العمل .

أشار الباشا إلى أحد الرجال المنتشرين حوله، وأخبره أن عربي سيأتي غدا إلى هنا، وعليه أن يرشده ويعلمه كيف يكون من رجال الباشا في التنقيب، ووجه حديثه إلى عربي بأن يحضر غدا باكرا ويجلس مع

(جاك) وينتبه لما يقال له ويعيه، وأن أستوعب وأفهم.. سيكون معهم وكأن لم يكن فيعود إلى قريته وكأن شيئا لم يكن .

ونادى على السائق وطالبه أن يعيدهم من حيث أتوا، ويُحضر عربي غدا، وانصرفوا، وعاد بهم السائق إلى نفس المكان الذي استقلوا منه السيارة .

بالفعل يذهب عربي كما هو متفق في اليوم التالي، فيجد (جاك) في انتظاره فيأخذه جاك ويصعد به إلى الطابق الثاني بالمنزل، وفي غرفة متسعة، يجلس عربي على أريكة بوسط الغرفة ويجلس أمامه جاك على كرسي مقابل له، ويضع أوراقا وصورا وملفاتٍ على منضدة خشبية تفصل بينهم .

- هل تناولت إفطارك يا عربي؟

- نعم يا أستاذ جاك.

- نادني جاك فقط فهذا لقبي وليس اسمي الحقيقي، أتحب أن تشرب شيئا؟

- نعم، كوبا من الشاي.

- اتصل بهاتفه.. أحضر كوبا من الشاي .

- استمع إلى جيدا يا عربي، العمل لدينا يختلف عما سمعته أو رأيته مسبقا، نحن لا نبحث أو ننقّب عن الآثار بضربة حظ، ولا بشكل عشوائي، هنا البحث يقوم على معرفة مسبقة، بأدلة وبراهين تؤكد أن هناك شيئًا

يمكن العثور عليه، ولكن أخبرني أولا يا عربي لقد سمعت أنّكم تستعينون بالمشايخ في التنقيب أليس كذلك؟

- بلى، ومنهم الشيخ علام الذي رأيته معي مسبقا، وأعتقد أنكم تعرفونه جيدا وتعرفون طريقة عمله .

- يجيبه جاك ضاحكا.. كلا كلا، الشيخ علام له معنا مهام أخرى غير التي تعرفها .

- لا عليك من هذا يا عربي، ما يهمني أن تعرفه أن العمل هنا يقوم على أسس وقواعد مختلفة، فمثلا نحن نستعين بإشارات ورموز نستدل بها على أماكن وجود الآثار، وكذلك نستعين بأجهزة وتقنيات فنية ومعدات، ترشدنا هل يوجد شيء أو لا، وأنت ستتعلم تلك الإشارات والرموز وكيف تفسرها، أما التقنيات والأمور العلمية فلها من يقوم بها .

- تمام يا جاك.

- هل قرأت شيئا يا عربي أو تعلم شيئًا عن أهل الحضارات التي تنقّب في دفائنهم وتبحث عما تركوه؟

- كلا، أنا وغيري نبحث عن شيء نستفيد منه مالًا، ولا يعنينا من أي عهد هم ولا قصتهم .

-نظر إليه جاك متعجبا وهز رأسه... انت ما يعنيك هو المال! إذن نعود إلى تعلم الرموز والإشارات .

- فمثلا من تلك الإشارات والرموز، صورٌ لبعض الطيور أو الحيوانات، أو بعض الأدوات التي كانت تستخدم قديمًا وكثير من الرموز، ولكلٍ منها دلالته وما يرمز إليه، هل في هذا صعوبة عليك يا عربى؟

- كلا أنا أسمعك جيدا .

- تلك الإشارات قد توجد على سفح جبل أو سقف مغارة، أو مدفونة في مقابر، وهناك كما أخبرتك الكثير من الرموز والإشارات التي ستتعلمها معي، ولكني أريدك أن تركّز على بعض الإشارات والرموز الهامة أكثر من غيرها.

- مثل ماذا يا جاك؟

يفتح جاك ملفا من الموجودين أمامه ويخرج منه صورا، ويشير بسبابته بعض الصور..

- انظر إلى تلك الصورة يا عربي، هذه (نجمة) وهذا (شمعدان)!

- وهل وجدتم من الآثار ما يحوي على تلك الإشارات أو الرموز؟

- لا تكثر الأسئلة يا عربي.. تعلم فقط.

****

بقي عربي معهم قرابة الثلاثة أشهر يتعلم، ولكنه طيلة الفترة تلك لم يذهب إلى مقبرة أو يشارك في تنقيب، وجعلوا له شهريًّا مبلغًا من المال، وراق له هذا العمل، فليس هناك جهد، وكل ما هناك هي جلسات أشبه بدروس في التاريخ والذي لا يعني له شيئا، المهم أنهم يدفعون له .

ومع حلول نهاية الشهر الثالث، أصبح عربي ملمًّا بخلفية تاريخية كما أعطوها هم إياه، جلس معه جاك، وأخذ ينتقل به إلى مرحلة أخرى من العمل .

- الآن يا عربي نريد منك أن تقوم بمهمة بسيطة .

- أنا مستعد لما تريد .

وطلب منه أن يأخذ تابوتًا حجريًّا به بعض الآثار والمقتنيات القديمة، ويدفنها في المكان الذي سبق ونقب فيه داخل بيته، ويردم عليها وكأنها موجوده منذ القدم، فيتعجب عربي من الطلب، وأبدى استغرابه من دفن أثر تم العثور عليه، وإعادة التنقيب عنه مرة أخرى.

- يا عربي أليس ما يعنيك هو الحصول على المال.

- بلى!

- إذن أنت تنفذ ما يطلب منك ليس إلا .

- ولا تخشون، أن أطمع فيه وآخذه؟

- يضحك جاك بسخرية، إذن ستكون راقدًا في تابوت بجواره .

نظر إليه عربي وقد ارتعدت فرائسه من الكلمة، والشر الذي لاح بوجه جاك وهو ينطقها..

- وكيف سأحمله، وأدخل به إلى المنزل، وأحفر له؟!

– لا عليك سنتولى نحن الأمر كله، المطلوب منك أن تتركه مدفونًا في منزلك، إلى أن يأتيك من ينقب عليه ويستخرجه.

- نظر إليه عربي، بنظرات الاستغراب والدهشة، فهو لا يفهم ما يحدث، ولا المغزى من كل هذا. ولكنه جلس يسمع ويفهم ما يملى عليه في صمت، إلى أن انتهى جاك، ثم انصرف عائدا إلى القرية .

****

عاد عربي إلى القرية مع حلول المساء، برأسه دوار مما سمع، ويملكه الرعب من هؤلاء القوم، فهم على استعداد للقتل، لمن يغضبون عليه، وهم يبحثون عن أمور غريبة، وكيف يكون معهم الآثار، ثم يعاودون دفنها مرة أخرى ثم يعودون لاستخراجها، أرهقه التفكير فلم يعد يفهم شيئًا، وما أن وصل إلى القرية، حتى سارع بالبحث عن الحاج إبراهيم، لعله يرشده أو يستوضح منه الأمر.

سريعًا ذهب إلى المقهى ليسأل عن الحاج إبراهيم، ولكنه لا يأتي إلّا بعد المغرب أو العشاء، جلس ينتظره، وبالفعل بعد المغرب بقليل يحضر

الحاج إبراهيم، وما أن خطت قدمه المقهى حتى نادى عليه عربي كالمستغيث.

- حاج إبراهيم، أقبل، أقبل، في انتظارك من قبل المغرب .

يتوجه إليه الحاج إبراهيم، مرحبًا به فهو لم يره منذ بدء العمل الجديد..

- كيف حالك يا عربي، وكيف العمل الجديد معك؟

- عمل جديد! بل قل الغمة الجديدة، الكارثة الثقيلة .

- ماذا، ماذا، لمَ ياعربي، ألم يعطوك أجرك؟ أم تشاجروا معك؟ ماذا حدث؟

- لن أستطيع أن أشرح لك الأمر هنا، أتاتي معي إلى بيتي، أم آتي أنا معك إلى بيتك؟

- كما تحب .

- إذن فلنذهب إلى بيتي وأشرح لك كل شيء .

وفي بيت عربي أخذ يلقي على سمع الحاج إبراهيم ما سمع ورأى، والشكوك التي تنتابه والحَيْرَة التي ألمّت به من العمل مع هؤلاء القوم، وخشيته من تركهم، وكذلك خشيته من الاستمرار معهم .

وأخذت الدهشة تبدو في ملامح الحاج إبراهيم مما يسمع، وكلما حاول أن يستوضح ما الحكمة من دفن الآثاروإعادة التنقيب عليها لا يجد لدى عربي إجابة، وبعد أن أعياهم الفكر، رأوا أن الحل قد يكون لدى الشيخ علام فهو من يعرفهم وربما مر بهذا الأمر سابقا .

بالفعل اتصل الحاج إبراهيم بالشيخ علام وطلب منه أن يأتيهم في القرية لأمر هامّ، فأخبره بمجيئه في الغد، وانتظر عربي إلى اليوم التالي إلى أن يأتي الشيخ علام عسى أن يبدّد ما لديه من مخاوف..

حضر الشيخ علام واستمع إلى عربي ولكنه استمع كما استمع الحاج إبراهيم، فلم يضيف جديدا.

- هم بالفعل علّموني تلك الإشارات التي تعلمتها أنت يا عربي، ولكني لا أدري ما معنى أنهم يأتون بأثر ويدفنونه ثم يستخرجونه .

ينظر إليه الحاج إبراهيم وعربي والحيرة على وجوههم من عدم عثورهم على إجابة شافية..

- إذن ما الذي يفعله عربي، أيستمر معهم أم يتركهم يا شيخ علام؟

- كلا كلا، يستمر معهم إلى أن يعرف، ما الذي يدبّر له هؤلاء، فربما كنا نظن فيهم السوء ويكون الأمر على خلاف ما نعتقد، متى تذهب إليهم مرة أخرى يا عربي؟

- بعد غد.

- حسنا كما أنت معهم إلى أن يطلبوا منك دفن الأثر، وساعتها سيكون منهم كلام تستوضح منه نيتهم .

- ولكن أخشى أن يغدروا بي، يا شيخ علام.

- لا عليك أنت لن تعارضهم، في شيء إلى أن ترى حقيقة الأمر .

وذهب عربي إليهم في موعده، واستقبله جاك، وهشّ وبشّ له ورحب به كثيرا،

وحاول أن يزيل الرهبة التي أصابته المرة السابقة .

- يبدو أنّك كان لديك الكثير من الأسئلة التي تود معرفة إجابتها يا عربي.

- نعم .

- سل ما شئت .

- قبل أن أسال، لمَ أنت متقلب المزاج وكثيرا أقرأ الغدر في عينيك؟

- لا عليك يا عربي ربما كان إرهاق العمل .

- حسنا هل لي أن أعرف ما اسمك الحقيقى .

- فيما بعد .

- هل وجدتم سابقًا شيئا مما أخبرتني أنكم تبحثون عنه؟

- كلا يا عربي لم نجد شيئا.

- السؤال الأهم، لم تريدون دفن أثرٍ في منزلي وتعاودن التنقيب عنه.. ما الحكمة؟

- حسنا هذا السؤال ما كنت أنتظره منك .

- إذن ستجيبني؟!

- اسمع ما أقوله لك جيدا، وإن وافقت سيكون لك معنا شأن عظيم، إن شئت مالًا ونفوذًا وكل ما ترغب، وإن رفضت لا ضير، لك هذا، ولكن تخرج من هنا مثلما أتيت، أي كأنك لم تعرف شيئًا، ولم ترنا بالكلية، وإلا أنت أدرى بالعاقبة .

- اتفقنا، ولكن تذكر، إن رفضت تتركوني وشأني.

- كلا، حين تنسى كل شيء، نتركك وشأنك.

- اتفقنا!

- اسمع يا عربي، نحن لا نبحث عن آثار، بمعنى آخر، ليس الآثار في حد ذاتها ما نريد .

- إذن عمّ تبحثون؟!

- نحن نبحث عن تاريخ .

- تاريخ؟!

- نعم، تاريخ، لا تشغل بالك كثيرا بهذا الأمر، دعنا الآن نتكلم فيما هو أهم!

- وهو؟

- نريدك أن ترى لنا يوما خلال هذا الأسبوع، وقبيل الفجر، نأتي إليك لندخل إلى بيتك تابوتا حجريا، وننقب له في بيتك، وندفنه.. ما قولك؟

- ماذا يوجد به هذا التابوت؟!

- تريد أن تعرف، حسنا، تعالَ معي لترى ذلك التابوت .

قام جاك وعربي ونزلا إلى الطابق السفلي، ونادى جاك على رجلين بأن يأتوا معهما، ثم نزلوا جميعهم إلى سرداب تحت الأرض، وقام جاك بفتح حجرة صغيرة، ودخلوها، وأشار جاك إلى تابوت حجري من البازلت أحمر اللون .

- هذا هو التابوت يا عربي.. ثم أشار إلى الرجلين، أن افتحوا التابوت.

****

بدأ الرجلان بإزاحة غطاء التابوت، غطاء ثقيل، الرجلان بالكاد يستطيعان تحريكه، وساعدهم جاك في إزاحته، وعربي ينظر ولسان حاله يقول: هيا أسرعا ماذا بداخل هذا التابوت، وخياله يصور له أن التابوت بداخله كنوز لم ترَ من قبل، وأشياء لطالما سمع عنها، ثم أن كان الأمر كذلك ما الداعي لأن آخذه وأدفنه في بيتي؟!

ها هم الرجال قد أزاحوا الغطاء، نظر عربي داخل التابوت..

- أداروجهه نحو جاك متعجبا.. ما هذا، ما هذا، ألا يوجد في التابوت غير لفائف جلدية وأوراق بردي فرعونية، وأواني حجرية؟

- نعم يا عربي أرأيت أن الأمر بسيطٌ لا يستدعي خوفك .

- ظننت أنّنا سنجد تماثيل ذهبية، وكنوزًا مما سمعت عنها دوما .

- ألم أخبرك سابقا بأنا لا نريد الآثار في ذاتها بقدر ما نريد إلى ماذا ترمز .

- ولكني لا زلت لم أفهم ما الداعي لذلك .

- عربي، الآن إما أن توافق وإما أن ترفض العرض، أن وافقت نكمل الكلام، وإن رفضت تخرج من هنا ويموت هذا الحوار للأبد. وإن وافقت، ثم تراجعت، ليس لدينا إلّا ما تعلم .

- هل تتركني أفكر في الأمر وأخبرك غدا .

- لك هذا، ولكن غدا وليس بعد غد .

- نعم، نعم غدا أعطيك القول الفصل .

انطلق عربي نحو القرية، وهذه المرة حدد وجهته، فذهب إلى الأستاذ حسن، فهو مدرس التاريخ والوحيد الذي قد يفك هذا اللغز ويحسن النصيحة، ذهب إلى منزل الأستاذ حسن، وشرح له الأمر برمّته، ففاجأه الأستاذ حسن بما لم يخطر بباله.

- إن أخبرتني منذ بداية الأمر، لأخبرتك بما خفي عنك وأكثر .

- حسنا ماذا هناك؟

- القوم يبحثون عن تاريخ يا عربي، فالمال معهم، والنفوذ لديهم، وينقصهم الأهم، ينقصهم التاريخ، ينقصهم الأساس، ينقصهم الجذور؟

- اعلم، أخبرني جاك بذلك، ولكن أنا لم أفهم ما معنى: يبحثون عن تاريخ؟

- يبحثون عن موطئ قدم في بلادنا .

- ولكنهم بالفعل في بلادنا!

- بلا سند، بلا شرعية، بلا تاريخ، يا عربي!

- أستاذ حسن، أنا رجل لم أقرأ ما قرأت ولا أفهم ما تقول، هلا بسط لي الأمر .

- تلك هي الكارثة يا عربي، إنك وغيرك، لم تقرؤوا ولم تجتهدوا أن تقرؤوا وتبحثوا.

وكان البحث وراء الملذات، هو شغلكم الشاغل، حتى أصبح منا من ينفذ ما يريدونه هم دون أن يدري،

هل تدرى يا عربي بعد أن يوضع الأثر في بيتك، ماذا سيكون؟

- نعم، هذا ما أريد معرفته، ماذا سيكون؟

- سيتم البحث عنه بعد فترة، طالت أو قصرت، ثم يتم الإعلان عما وجد داخله، وما وجد داخله لن يكون إلا مخطوطات وبراهين صاغوها هم، ويروّجون لها كدليل على وجودهم بهذه البلاد منذ القدم .

- نعم، أنا لم أجد في التابوت إلا أوراق بردي، وفخاريات وأشياء من هذا القبيل .

- ولن يعدموا الحيلة، من أن يختطوا بعض الرموز أو الكلمات، التي تثبت تاريخا مزيفا .

- أو ليست تلك المخطوطات والآثار هناك من يثبت زيفها، وأنها غير حقيقية.

- يكون الشك قد زرع في نفوس الكثير بين مصدّق ومكذب، وهذا لهم ربح.

- ولماذا يدفنونها لدي، لماذا لا يدفنونها في الصحراء مثلا، ثم ينقبون عنها؟

- لعلهم يخشون أن يتهمهم أحد أن بالأمر ريبة وهم من قاموا بذلك، أما كون الدليل من داخل ديارنا، فهذا أوقع مصداقية؟

- ألا يخشوا أن أفضحهم وألا أتمادى معهم؟

- قالها لك سابقا، ستكون في مقبرة، وكم من أدلة طمسوا، ورجال قتلوا .

- إذن وما العمل؟

- أنهِ علاقتك بهم يا عربي، قبل التورط في أمور فوق طاقتك .

- وينتهي الأمر بلا تبعات؟

- التبعات قد تنتهي بالنسبة لك، أما هم فلن ينتهي بهم الأمر عند هذا الحد، سيبحثون عن غيرك، وطالما هناك مغيّبون كثر لا يعلمون ولا يقرؤون عن حاضرهم ولا ماضيهم شيئا، سيبقون هم كما هم .

ما دام الذي يشغلنا هو الطعام والشراب والملذات وتركنا هويتنا سيبقى الخطر قائما، هؤلاء القوم يا عربي يعلمون أن لأهل تلك البلاد جذور ضاربة في عمق التاريخ، وتلك عقدتهم.

- ما هذا يا أستاذ حسن، لقد أصبتني بدوار، أنا أشعر وكأنني في غيبوبة بعد كل ما ذكرت .

- لذا ينبغي أن تستفيق، ينبغي أن تنهض من هذا السبات الذي اعتدنا عليه أنا وأنت.

- إن ما تقوله يستدعي سنوات!

- ابدأ من اليوم تجد الثمرة لدي ولدك في الغد .

****

القصة الرابعة

الحية الرَّقْطاء

في شقّة متواضعة من غرفتين، ذات جدران بالية، لم تدهن منذ سنين، وأثاث بحالة يرثى لها، ودورة مياه تكاد تنهار من هذه المياه الناشحة على جدرانها دوما، تعيش رباب ذات العشرين عاما مع والديها اللذين لم ينجبا سواها، العيشة كذلك متواضعة، فالأب يعمل ساعيًا بإحدى الشركات، وما يجنيه بالكاد يكفيه، وما هي إلا سنوات قليلة ويحال إلى المعاش ويزداد الوضع سوءا على سوء، والأم ربّة منزل تعمل على خدمة زوجها وابنتها، حاول الأب قدر جهده أن يحسن تربية ابنته، وأنفق عليها حتى أنهت دراستها، ويتنظر اليوم الذي يراها فيه وقد تزوجت وفي كنف رجل، ليشعر أنه أكمل رسالته .

ورباب شابة متوسطة الجمال ولكنها فائقة الذكاء، فهي متوسطة الطول، سمراء البَشَرَة، قد أنهت دراستها الجامعية العام الماضي بكلية التجارة، وتبحث الآن عن فرصة عمل تساعدها في شراء ما يلزمها كعادة البنات في هذه السن، ولترفع عن كاهل أبيها شيئا من المعاناة، فقد أضحت شابة وبين لحظة وأخرى قد يأتي من يخطبها . وهي تمني نفسها بذلك اليوم الذي تتزوج فيه من يأخذها إلى حياة رغيدة ترى فيها ما تحلم به من طيب العيش واقعا، بعيدًا عما تراه من مشاكل بين الحين والآخر بين والديها بسبب ضيق الحال، وكذلك ما يصيبها من ضجر مما يسببه الجيران حين تنشب بينهم المشاكل لأتفه الأسباب، فتارة بسبب لعب

الأطفال وتارة من سوء المعاملة بينهم أو بسبب القيل والقال. ومن الجيران سامر ذلك الشاب البسيط، ذو الأحوال السيئة هو الآخر، فلا عمل ولا تعليم، يجاورهم في المنزل، ويسكن الطابق الذي يعلوهم، تقدم لخطبة رباب أكثر من مرة ولكنها رفضت، فهي تراه عبئًا عليها أن تزوجته فهي تريد من تعيش معه حياتها، لا من يضيف على معاناتها معاناة، وبالفعل تنجح في العمل كسكرتيرة في شركة إلكترونيات، بمرتب يساعدها شيئا ما ويغنيها عن أن تسأل أباها شيئا آخر بعد ما أنفق الكثير.

حين تذهب إلى العمل تستقل سيارة أجرة، وفي عودتها ترى المعاناة حيث خروج الموظفين يجعل الطرقات متوقفة والمواصلات بالركاب متكدسة، وإلى أن تعود إلى البيت تشعر أنّها كانت تواصل عملا بعمل، مجهدةً تلقي نفسها على السرير، إلى أن تجهزلها أمها الطعام، وفي المساء تجلس في شرفة منزلها تدعو الله أن يكون الخلاص قريبا .

وبينما هي على ذلك الحال، حلّ بهم خاطب، يريد التقدم إليها، حيث زفت إليها أمها بشرى أن جارتهم (أم محمد) أخبرتها أن جارا لهم يدعى (فارس) يريد خطبتها، فرحت رباب كثيرا واستبشرت بأن يكون هذا استجابة لدعائها، وأن يمنّ الله عليها بزوج تقضي معه بقية حياتها في راحة وسعادة، وفارس ذو يسار ومال، فقد ورث عن أبيه الكثير من المال ومنزلا كبيرا، وفارس شاب وسيم يعمل بوظيفة مرموقة بإحدى شركات

البترول، وهو الآن يبحث عن عروسة، فقد بلغ الثلاثين ولم يتزوج بعد، لانشغاله بالعمل الذي أصبح فيه ذا مكانة، وليس له سوى أخته (أمل) والتي تكبره بعشر سنين، تعيش معه في المنزل الكبير بعد أن توفي زوجها وهي لم تزل شابة وورثت عنه شقة صعيرة كانا يعيشان فيها، أغلقتها بعد وفاته، وذهبت لتعيش مع أخيها، في بيت أبيها، فالبيت كبير، من طابقين، بكل منهما أربع غرف، يتوسط الغرف ردهة كبيرة، وقد أبتْ أن تتزوج ثانية، وفضلت البقاء أرملة على ذكرى زوجها، ورثت هي وأخوها البيت والمال عن أبيهم الذي كان يعمل تاجر مقاولات، والآن تسكن البيت الكبير مع أخيها، وقد أخبرت (أم محمد) التي تأتيهم يومين في الأسبوع لتساعدها في المنزل، برغبتها في أن تجد لأخيها عروسة فهي تخشى أن يتقدم به العمر، فبادرتها أم محمد بأن طلبها موجودٌ في جارتهم تلك الشابة ذات الأدب والوقار، ولكنهم لا يملكون من حطام الدنيا شيئًا، وغناهم يكمن في كرامتهم وعزتهم بأنفسهم، من بيت يعرفون حق الزوج ومكانته، رحبت أمل بالأمر ولم ترَ أن الفقر عائق ما دامت ستحافظ على أخيها، وكذلك فارس حين علم بالأمر لم يجد غضاضة كونها فقيرة، وبالفعل رتّبت أم محمد لقاء بين والدي رباب، وفارس وأخته أمل، وذهب فارس وأخته إليهم ليتعارفوا، وارتاحت نفس فارس إلى رباب وكذلك هي، ووافق فارس على ما طلب والدا رباب بل وزادهم عليه، وكذلك أمل فرحت بها، وتركتْ رباب العمل وبدأت تجهز نفسها لتكون ملكة متوّجة في بيتها مع زوجها،

وما هي إلا أشهر قليلة قضياها في الخطبة زادتهم تعلقا ببعضهم البعض، وأغدق عليها فارس من هداياه الكثير ومن عاطفته الأكثر، ولا يكاد يمر يوم إلا ويخرجان سويا أو يهاتفها تليفونيا، وأصبحا على أهبة الاستعداد للزواج، والذي تم في قاعة احتفالات تكفل فارس بكل ما لزم تلك الليلة، ولم يثقل على رباب وأهلها في شيء، ولم تشعر رباب يومًا أن هناك فارقًا بينهم، ففارس دوما يتصرف معها كفارس بالفعل!

****

انتقلت رباب للعيش مع زوجها في البيت الكبير، وسكنا الطابق العلوي، وتعيش أخته أمل بالطابق السفلي، ومر العام الأول على زواجهما وثلاثتهم لا يعكر صفو حياتهم شيء، فارس يعود من عمله مساء يجد زوجته في انتظاره، ورباب تقضي يومها إما تعد ما يلزم زوجها حين يعود أو مع أمل بالطابق الأرضي تتسامران وتذكر كل منهما ذكرياتها مع الحياة، ومع نهاية العام الأول، تضع رباب مولودها (صالح) والذي أضحى حياة أبيه وأمه، وكذلك عمته أصبح لها ولدها الذي لم تنجبه، فهي طوال اليوم إما تطعمه أو تلاعبه أو تلتقط صورا معه، ترعرع بين أبيه وأمه وعمته، حتى بلغ السبع سنوات وكلّ منهم يغمره بحبه وعطفه، وفارس مع نهاية كل أسبوع يأخذ زوجته وابنه ليتنزها، بعيدا عن البيت وكسرا

للرتابة والملل، أحيانا تذهب معهم أمل وأحيانا تتركهم ليذهبوا هم، فقد أضحت على مشارف الخمسين ولم تعد الصحة كما كانت، يخرج فارس وزوجته وابنه على عادتهم في نهاية الأسبوع ويتركون أمل في المنزل، وهم في سيارتهم وبطريق عودتهم من رحلة نهاية الأسبوع، تصطدم بهم شاحنة كبيرة يقودها سائق مخمور، لتطيح بسيارة فارس وزوجته وابنه بعيدا عن الطريق، وتنقلب أكثر من مرة، ويتوقف الطريق وتحضر سيارات الإسعاف، وينقل من بالسيارة إلى المستشفى، والإشاعات والكشف الأولى يظهر أن الأم بها سحجات ورضوض، والطفل كسر بالذراع، والأب حالته خطر تستدعى المزيد من الفحوصات والأشعّة، فقد تلقى الجانب الأكبر من الصدمة، أما زوجته وابنه فكانا بالمقعد الخلفي، تثبت الفحوصات الكثيرة والأشعة أن الأب مصاب بكسور وارتجاجات شديدة بالمخ، قد يترتب عليها فقدان ذاكرة، بالإضافة إلى كسور في الأضلاع ورضوض وكدمات .

تهرع أمل إلى المستشفى مزهولة من هول المفاجأة والصدمة، ترى ثلاثتهم راقدين في غرفة واحدة، الأم تعي ما حولها، الطفل كذلك يرقد وذراعه ملفوف بالجبس ومعلق برقبته، والأب لا يدري من أمره شئا، حيث لا حركة ولا كلام، غيبوبة كاملة، تحاول أمل أن تستفسر من رباب عن ما حدث، فأخبرتها ما حدث وأن الخوف اليوم على فارس فالأطباء لا يرون الأمر بسيط، وربما يصاب بفقد ذاكرة حاد، فلقد تضرر الرأس كثيرا

جراء الحادثة، يحاول الأطباء بقدر جهدهم تقديم المعونة والمساعدة لتقليل حجم الضرر الناتج عن الحادث، ولكن وقع الحادث على الرأس كان كبيرا وبالفعل أصيب فارس بفقدان الذاكرة، وأرجع الأطباء أمر شفائه بالكلية إلى معجزة إلهية، وأوصوا زوجته وأخته ألّا يملوا دوما من محاولة تذكيره بحياته الماضية لعله يسترجع ولو شيئا مما كان يحياه، وأن من دواعي حالته العصبية الزائده لشعوره دوما بالاغتراب، وأوصوهم بتحمله، وما هي إلا أسابيع قليلة تماثل فيها فارس للشفاء من الإصابات الظاهرية بالجسد .

ولكن بقي لا يعي عمن حوله شيئا، أخذته زوجته وأخته إلى المنزل، حاولوا أن يشرحوا له ما أصابه، وأنهم أسرته، حتى صالح الطفل الصغير علموه أن يذكره دائما بأنه ولده، ودوما يذكروه بأن هذه أخته، وتلك زوجته، وذاك ولده، حتى يتأقلم معهم ولا يلفظهم، ولكنه لا يألفهم، وبينه وبين نفسه دوما يشعر بالغربة معهم .

ويكاد يكون ما حفظه أن تلك زوجته وهذا ولده وتلك أخته، ولكنه لا يشعر هو فقط يحفظ، وأصبح يحيا بينهم كالغريب، وأصابه الضّجر والضيق مما يعيشه فهو لا يدري من الدنيا أي شيء حوله، وأصبح عصبي المزاج لأقل سبب .

وبدأت رباب تصاب بالضجر والملل، ويوم بعد آخر أضحت تعامله بجفاء وترد عليه الكلمة بالكلمة، حتى بدأ الخلاف يتفاقم بينها وبينه وكذلك بينها وبين أمل التي لم تقبل تلك المعاملة لأخيها بعدما أصابه ما أصابه.

وبدأ يبيت كل ليلة في الطابق الأرضي مع أخته أمل تؤانسه وتحاول أن تذكره بشيء من ماضي ذكراهم، وعمله وتعرض له صورا له مع ولده، ولكن دومًا فارس كان ينظر إليها وهي تتكلم كالمستغرب حديثها، وحين تسأله هل تذكر من ذلك شيئا والإجابة دوما بالنفي، حتى وإن رأت ولده صالح يلهو أمامهم، تسأله:

- هل تذكر هذا الطفل يا فارس؟

-هذا ولدي؟

- إذن هل تذكرته؟!

- كلا، أنتم من أخبرتموني بهذا .

وليلة بعد ليلة وشهر وراء شهر، مرت ثلاث سنوات ولا جديد الحال هو الحال، حتى لم تعد رباب تطيق الأمر، ولكن إن تركته خسرت العيشة الطيبة التي تحياها وتعود ثانية للأيّام الخوالي وضيق الحال وشظف العيش حيث الفقر شاهرًا سيفه، أضف إليه نظرة اللائمين والشامتين، فنظرة الناس كطعن الرمح لا ترحم، بدأت تحتال لنفسها كي تخرج بأقل خسارة، وفكرت ما السبيل إلى الفكاك من هذا الأمر الذي يبدو أنه استقر

على هذا الوضع، رجل مريض ومرضه مستحكم، وأخت حزينة عليه، وهي بين هذا وذاك لا تشعر بحياتها، ووصلت إلى مبتغاها بفكرة تخلصها من ذلك الرجل المريض ولكن بلا خسارة، فأخذت تلاطف فارس وتتحمله، وتضحك له مكرًا، وتضمر له شرا .

****

أدخلت رباب في عقل فارس، أن الضرائب تطالبه منذ فترة بسداد مديونيات عليه، وإن لم يسدد فسيحجزون على المنزل، ويتشرد هو وابنه وأخته، وأقنعته أن ذاك الأمر كان قبل تعرضه للحادث، ولا سبيل للخلاص من هذا الأمر إلا بكتابة البيت لها بيعًا وشراء، حتى يثبت للضرائب إنه لا يملك ما يسدد به، وهذه المديونيات مبالغ بها، وأن عليه أن لا يخبر أخته، حتى لا يسبب لها حزنا آخر على ما تحياه من حزن فيكفيها ما بها .

تردد فارس في بداية الأمر، ثم أقنع نفسه بأن تلك المرأة التي يفترض أنها زوجته، تحيا معه في المنزل ولا بد أنها تفعل ما في صالحه..

بالفعل وافق فارس على أن ينقل لها ملكية المنزل ووقع كل ما طلب منه من أوراق، وسجل ووثق ما طلب منه، ولكن بقيت مشكلة والتي يبدو أنها ستمثل عقبة كئودا، فارس ليس المالك الوحيد، أخته أمل تمتلك

حصة في البيت، ولكن لا ضير فقد امتلكت القسط الأكبر، ورباب لن تعدم الحيلة في الاستيلاء على بقية البيت.

بدأت رباب تعتزلهم بالكلية، وكثيرا ما تخرج ولا يعلم أحد أين كانت، وحين تعود تأخذ صالح معها إلى الطابق العلوي، وبين الحين والآخر تستدعي أمل الطفلَ ليجلس معها ومع أبيه.

وبدأت أمل تعاتب وتلوم رباب على اعتزالها زوجها بالكلية، فتفاجأت، بكلمات جافة، وردود أفعال عنيفة، ورغبتها في الانفصال عن فارس فلقد فاض بها الكيل من تلك العيشة، ولم تناقشها أمل في الأمر، وطالبتها أن تأخذ جميع مستحقاتها، وتذهب إلى بيت أبيها طالما أن تلك رغبتها، وهنا تفاجأت بالطامة، وأخبرتها أنها تملك في المنزل أكثر مما تملك هي، وأن فارس باع لها ميراثه في المنزل، ونزلت من الطابق العلوي إلى أخيها تسأله، دخلت عليه غرفته وجدته جالسا يلاعب ولده، فأخرجت صالح من الغرفة، وسألته عما أخبرتها به رباب، فأقر لها.

- نعم حدث، أخبرتني أن الضرائب ستحجز على المنزل إن علموا بملكيتي له؟

- ولماذا لم تخبرني يا فارس قبل أن توقع على شيء؟

- أخبرتني أنّك ستزدادين حزنا على ما أصابني، فخشيت عليك.

احتضنت أخاها وأخذت تبكي على وضعه ومأساته، وعادت إلى رباب، فلقد أصبح الصراع عيانًا جهارا، وأخبرتها بنيتها إخبار الشرطة

وفضح ما قامت به، فزوجها رجلٌ مريض ولا يعتد بما فعلت، لكن رباب كانت متحسبة لتلك الخطوة فالأوراق وعقد البيع بتاريخ سابق على الحادث، لكن أمل لم تملذ، فلقد تعرض أخوها لسرقة ونصب، ومن أقرب الناس إليه، ذهبت إلى أكثر من محامٍ لتعرض عليهم الأمرولكن الكل أجمع على قوة موقف رباب، فالبيع والشراء موثق وسليم الإجراءات، فلم يتبقَّ إلا محاولة استعطاف رباب بأن ترد للرجل المريض ما يملكه وتأخذ حقها الشرعى .

ولكن باءت محاولات أمل بالفشل، وأخبرت أهلها بما فعلت، ولكن رباب كانت عازمة على الأمر، ومع استحالة العيش سويا وفقدان الراحة، عرضت عليها أمل أن تشتري منها بقية نصيبها ويتركوا لها البيت وتذهب وأخوها ليعيشا في شقتها التي ورثتها عن زوجها، ويبقى صالح في رعاية مشتركة بينها وبين أبيه، وافقت رباب على العرض على أن تسدد لها حقها، مجزأً؛ كلما تيسر لها شيء تعطيها إياه، وأخذت متعلقاتها وأخيها وابن أخيها معها إلى الشقة القديمة، ونجحت رباب في أن تفوز بالبيت وتنهي هذه الزيجة بلا خسائر مادية، ولن تعود إلى بيت أبيها القديم، ولن ترى أحدا ممن يؤذونها بنظراتهم كونها مطلقة، أولم تتحمل زوجها رغم سابق أفضاله عليها، والآن عليها أن تبحث عن عريس فهي لم تزل شابة ولن تعيش في هذا البيت الكبير بمفردها، وأرسلت إلى سامروالتي كانت ترتب معه الأمر أثناء مرض زوجها .

وعرضت عليه الزواج ويعيش معها في بيتها، فهي تملك مالا ومسكنا ولا تريد إلا ستارا كونها امرأة متزوجة، وافق سامر على العرض فلا يوجد أمامه غير ذلك، بل وجدها فرصة، خيرا من أن يقضي عمره بلا زواج، وبالفعل تزوجا وعاشا في المنزل وسنة وراء أخرى أنجبت ولدا وبنتا، وبعد أن كانت ترى ابنها صالح كل بضعة أيام أصبحت تراه كل شهور ثم تركته لأبيه وعمته ليتولوا هم شأنه!

******

بقي صالح في كنف أبيه وعمته وحالة الأب لم يعد يطرأ عليها جديد.

مرت السنوات وأصبح صالح شابا يافعا وأنهى جامعته، وعمل بشركة تطوير عقاري كبرى، ولا يكدر صفو حياته سوى أبيه وما حدث له، وحين يجلس معه دائما يسأله:

- هل تريد أن تأكل؟ أتريد أن تشرب؟ أينقصك شيء؟ لقد تولى الأمر عن عمته فقد أصبحت مسنّة، وكثيرا ما ينظر إليه ويحاول أن يتمالك دموعه أمامه، ويقول في نفسه: آه يا أبي أتقضي عمرك هكذا لا تدري عن نفسك ولا عني شيئا، وإن غلبه البكاء، يقوم من أمامه ليجلس في شرفة الشقة أو غرفة أخرى وينهار في البكاء!

وبدأ يتأثر سلبا في عمله نتيجة انشغاله بمتابعة ورعاية أبيه، وإن طُلب منه تسويق عقار للبيع، أو البحث لمشترٍ عن عقار؛ لا يكمل الأمر لنهايته ويعطيه لأحد زملائه ليتمه، حيث كثيرا ما يذهب مع أبيه لكشف أو علاج ، أو شراء شيء ما له.

ولشدة تأثره بحالة أبيه، عرض على عمته أن يعرض أباه على الأطباء فلقد تطور الطب عما كان وقت الحادث، ولاحظت عمته تعلقه بأبيه فوافقته رغم علمها بسوء حالة أخيها، وبالفعل نجح أن يذهب بأبيه إلى أحد خبراء المخ والأعصاب وعرض عليه حالته، والتى رآها بالفعل متأخرة كثيرا، ولكن العلاج قد تطور كثيرا ، وقبل الطبيب أن يجري عليه بعض الاختبارات والعلاجات الحديثة ويرى النتيجة، وافق صالح على الفور، والتكاليف أن استدعت سيقوم بعمل قرض من عمله ويتكفل بالأمر، بقي الأب بالمستشفى قرابة الشهر تحاليل وأدوية وعلاج بتقنيات حديثة عما كانت موجودة زمن الحادث، وبدأ التحسن يطرأ على الحالة.

نعم بدأ يتذكر بعض الأمور ولكن بطريقة مشوشة، ما أن يتذكر شيئا حتى يضيع منه ترتيب الحدث الذي يتذكره، وأخبر الطبيب ولده صالح أن أباه يحتاج الآن كثرة التحدث معه عن ماضيه حتى تتم استفاقة الذاكرة فعضويا تم علاج الأضرار، ويتبقى الضغط الذهني على المخ لاستعادة الأحداث، وهذا يتطلب أن يتم تذكيره بأحداث وأماكن لها في سابق حياته تأثير .

عاد صالح بأبيه إلى البيت تملؤه الفرحة، وأبوه أصبح كلما يتذكر شيئا يسارع إلى إلقائه على مسامع صالح، يذكر جملتين أو ثلاثا ويتوه عن بقية القصة، وصالح فرح بتطور الحالة، فأبوه كان أشبه بمن في غيبوبة، وحين يقبل الليل ينادى الأب على صالح ليساعده على استرجاع الذكريات!

- صالح هل تتذكر حين كنت آخذك وأمك لنتنزه خارج البيت؟ هل تتذكر؟ لقد كنت صغيرا..

ثم صمت لحظة، وأخذ ينظر إلى صالح، ويمعن التأمّل.

- صالح أين أمك؟ أين رباب؟ هل ماتت في الحادث؟

وترك صالح وهم مندفعًا نحو الخارج إلى غرفة أخته أمل، وينادي بصوت عال: أمل، أمل، أين رباب، انطلق خلفه صالح محتضنا إياه، وأعاده إلى غرفته..

- اهدأ يا أبي واستمع إلي.

ينتاب صالح الصمت وتلوح في عينيه عبرة لا يتمالكها فيجهش بالبكاء ويحتضن أباه، وكذا يجهش الأب في البكاء ويردد:

- أماتت أمك يا صالح؟

أخذ صالح يربّت على ظهر أبيه وهو يحتضنه قائلا:

- سأخبرك كل شيء يا أبي سأخبرك .

- ستخبرني! ألم تمت في الحادث؟ إذن كيف ماتت؟ أفي المستشفى؟

- أنت الآن مجهد يا أبي، وهذا إرهاق عليك، وأنت لم تتعافَ بعد، غدا أروي لك كل شيء .

خرج صالح وترك أباه لينام، بحجة أنّه مرهق ولا ينبغي عليه الإجهاد والتفكير الكثير، وأنه لم يزل في مرحلة العلاج، وما أن خرج وأغلق باب الغرفة على أبيه، وإذا به ينادي ثانية.

- صالح، صالح!

- نعم يا أبي ماذا تريد؟

- ما لنا يا بني نعيش في شقة زوج أختك أمل، أين بيتنا، أين منزلنا يا صالح؟

- ألم أخبرك يا أبي بأني سأروي لك كل شيء لاحقا، ولكن إن كان لي لديك مكانة، نم الآن حتى تستريح ونتحدث لاحقا .

ذهب صالح إلى عمته وأخبرها أن أباه بدا يستعيد أمر أمه ويسال أين هي، فأشارت عليه أن يخبره بأنها ماتت في الحادث، فإن علم بما حدث ربما تنتكس حالته، ويصاب بأمر آخر إن لم يكن في الذاكرة ففي غيرها، فلقد أصبح كبيرا في السن ولا يتحمل صدمة تنهي على حياته بعدما عاش هذه التجربة المريرة، ولفتت انتباه صالح بأن عليه أن ينظر إلى مستقبله فهو إلى الآن لم يتزوج، وأبوه بدأ في التحسن وحاله أفضل مما كان، وهي أصبحت مسنّة لم تعد تتحمل القيام بما يلزمه من أعباء .

- إذن وأين أسكن يا عمتي؟ فما كنت أدّخره أنفقته أثناء علاج أبي .

- لا عليك يمكنك استئجار سكن إلى أن تتحسن أحوالك.

- إذن عليك أنت أن تبحثي لي عن تلك العروس .

- أنا؟! أما يكفي ما جنيته على أبيك باختياراتي له .

- كلا يا عمتي هذا قدر، والحمد لله على كل شيء!

- إذن دع الأمر نرتّبه سويا، ولكن احذر أن تخبر أباك بأمر أمك!

وعزم صالح ألّا يخبر أباه بالحقيقة.

وبدأ ينتبه إلى عمله الذي أهمله الفترة الماضية لانشغاله بعلاج أبيه، ومع انتظامه في العمل يطلب منه مديره أن يتولى عملية تسويق منزل كبير لأسرة تريد أن تبيعه، ويتواصل صالح مع صاحب المنزل ليأخذ مواصفات المنزل وما هو السعر المطلوب، وإن كان يمكن أن يرسل له صورا للمنزل لعرضها على من يريد الشراء، وبالفعل يحاول تسويق المنزل لدى المشترين، فما بين مشترٍ يطلب منزل أقل مساحة وآخر يريد منزل أقل سعرا، بقي صالح معه بيانات المنزل إلى أن يجد له مشتريا!

بعد أن طالت فترة البحث عن مشترٍ، ذهبت ابنة صاحب المنزل إلى الشركة لترى لمَ لَمْ يتم بيع المنزل، فأرسلوها إلى صالح فهو المسؤول عن تسويق المنزل، فدخلت إلى مكتبه وعرفته بنفسها.

– مريم سامر، ابنة صاحب المنزل .

رحّب بها صالح، وأخبرها أن المنزل بمجرد أن يظهر له مشترٍ سيتصل بهم فورا.. وانتهت المقابلة، ولكنها لم تنته في قلب صالح، فقد أعجب بها، وكذلك شعرت هي في نظراته بشيء خلاف ما أتت إليه، ومريم شابة جميلة.. يبدو على حديثها اللباقة والثقافة .

ما أن ذهب صالح إلى البيت حتى بدأ يفاتح أباه بالأمر، فرحّب كثيرا، وبدأ أباه يكلمه والبكاء مختلط بكلامه!

- نعم يا صالح تزوج، إني أريدك أن تتزوج، تزوج يا بني وافرح، فقد عانيت معي سنين طوالا!

- يضحك صالح ويقبل رأس أبيه، يا أبي هو مجرد إعجاب.. أنا لا أعلم عنها شيئا!

- إن شاء الله يا ولدي ستكون زيجة خير، أنا أذهب معك وأخطبها لك... وكذلك فاتح صالح عمته والتي رأت إن كانت تتناسب معهم، يتقدم إليها، وعليه أن يسأل عنهم أولا .

عزم صالح على أن يذهب إلى بيتهم ويفاتح أباها في خطبة ابنته مريم، ويتعرف عليهم ويرى إن كانوا يتناسبون مع بعضهم أم لا.

يذهب صالح إلى البيت، يطرق باب المنزل، يفتح له شابٌ يصغره بعدة سنوات، يعرفه بنفسه أنه من شركة التطوير العقارى المكلفة ببيع منزلهم، ويرغب في مقابلة صاحب المنزل، يرحب به الشاب .

- تفضل يا أستاذ صالح، أنا كمال ابن صاحب المنزل .

يجلس صالح في ردهة واسعة في منزل من طابقين، بكل طابق أربع غرف، يدخل عليه رجل كبير يلقي عليه السلام ويجلس على كرسي مقابل له .

- مرحبا يا بني، أنت من شركة العقارات أليس كذلك؟

- بلى!

- ما بال هذا الأمر طال يا بني قرابة الأربعة أشهر ولم تجدوا مشتريا؟!

- إن شاء الله نجد له مشتريا، ولكني في الحقيقة أتيت لأمر آخر .

- أمر أخر! تفضل يا بني.. خيرا .

- إني آتٍ لأسالك خطبة ابنتك مريم .

نظر الرجل إليه وابتسم..

- تخطب مريم! لم يخبرني أحد بهذا الأمر .

- نعم يا عمي، أن مريم ذاتها لا تعلم .

- حسنا يا بني، أستاذنك لحظة وأعود إليك .

صعد الرجل إلى الطابق العلوي، حيث زوجته المريضة ترقد في السرير، وبجوارها مريم، دخل عليهم مندفعا .

- رباب.. هل تعلمين من بالأسفل؟

- باستغراب، نظرت إليه رباب وهي على رقادها، من؟

التقطت مريم طرف الحديث، أليس مندوب شركة العقارات؟

- نعم هو، هل تعلمين لماذا، جاء؟

- وجد مشتريا للمنزل!

- كلا، إنه هنا لخطبتك .

بقي صالح في الطابق السفلي، يتأمل المنزل ويحدث نفسه، منزل كهذا لا بد أن يكون أهله بدرجة من الثراء تجعلهم يترددون ألف مرة للموافقة على خطبتي لابنتهم، ولعلهم يريدون بيعه ليشتروا أفضل منه، ولفت انتباهه صورة كبيرة لطفل يضحك بين أبيه وأمه يمسك كلٌّ منهما بذراعه، معلقة على جدار في الحائط المقابل له، فتقدم نحو الصورة وأمعن النظر، يا له من شيء غريب هذا الرجل يشبه أبي وهو صغير، وقطع تأمله وقع أقدام صاحب المنزل وهو ينزل من أعلى، فعاد مسرعا إلى مكانه .

- مرحبا بك يا بني، لقد ازددنا شرفا بك، اسمع يا بني كما ترى لقد تفاجأنا بالأمر، فدعنا نسأل عنك وكذلك تسأل عنا، وسنرد عليك لاحقا .

خرج صالح من المنزل عائدا إلى بيته، وأخبر عمته وأباه بما حدث، وفي اليوم التالي اتصل صالح بمريم، والتي شعر من كلامها موافقتها على الخطبة، ولكنها لاتعرف شيئا عنه، فأخبرها أنه يعيش مع أبيه وعمته وأن أمه متوفاة، وأعطاها مقتطفات عن قصة مرض أبيه وكيف شفي بعد سنين، وكذلك هي عرفته بنفسها وأهلها وأن أمها مريضة ولا تتحرك من السرير وهي صاحبة المنزل وليس أبوها، وقد أصيبت منذ فترة قصيرة بشلل نصفي، وهذا هو سبب عرض منزلهم للبيع حيث إن والدتها بحاجة

للسفر إلى الخارج لإجراء عملية بالعمود الفقري، وهكذا بدأت العلاقة تتوطد بين صالح ومريم .

وعاد إليهم بعد الأسبوع، فأخبروه بموافقتهم، على أن يأتي بأسرته ليتعارفوا أكثرويحددوا ميعاد الخطبة.

بدأ صالح يستعد مع أبيه للذهاب إلى بيت مريم، والأب تغمره فرحة عارمة فهو يريد أن يرى ابنه سعيدا بعد أن عانى معه لسنوات، واعتذرت عمته لظروفها الصحية، على أن تذهب معه يوم الخطبة!

****

.تجه صالح وأبوه، نحو منزل مريم، وما أن وصلا أمام البيت، أخذ أبوه يتلفت يمنة ويسرةً وينظر إلى البيت، فسأله صالح،

- أهناك شيء يا أبي؟

- ها؟ كلا، اطرق الباب يا صالح .

طرق صالح الباب، واستقبلهم كمال أخو مريم ورحب بهم، وجلسوا في الردهة الموجودة بوسط البيت، وتركهم كمال لينادى أباه، الأب يتلفت برأسه في البيت، وصالح بدأ يشعر بالحرج، ظنا منه أن أباه معجب بالمنزل .

- أخبرنى يا صالح أهذه أول مرة نأتي إليهم أم أتينا هنا من قبل؟

- ربّت صالح على ظهر أبيه، كلا يا أبي تلك أول مرة ناتي إلى هنا .

- حسنا يا ولدي، انت أدرى .

- أُصدقتني الآن يا أبي بأنك لم تزل تحتاج إلى فترة أخرى من الراحة والعلاج .

وأثناء تلفت الأب في المنزل والجدران، يلمح صورة الطفل المعلقة على الجدار، يقوم الأب من مكانه، وببطء يتجه نحو الصورة، ويقف أمامها، ويحدق ويطيل النظر. ويقوم خلفه صالح واقفا بجواره!

- هذا الرجل يشبهك يا أبي، لقد وقفت مثلك وتعجبت لهذا الشبه .

- صالح .

- نعم يا أبي .

- صالح .

- نعم يا أبي أسمعك .

رفع الأب سبابته وهو يشير بها إلى الطفل.. إن كان هذا الرجل يشبهني، فهذا الطفل أنت يا صالح، وهذا الرجل لا يشبهني هذا الرجل أنا يا صالح .

بدأت أصوات قدم صاحب المنزل تطرق السلم، فناشد صالح أباه أن يدع هذا الكلام، ولا يحرجه مع والد خطيبته، وحاول أن يقنعه أنها قد تكون انتكاسة لحالته، وأخذه وعاد به سريعا إلى مقاعدهم .

رحب الرجل بهم وضايفهم، وأظهر لهم ودا، ووالد صالح أصبح تركيزه في المنزل، يتلفت في جنباته، وينظر إلى الصورة، ولم يعد مهتما بحديث والد مريم، وأخذت ذكرياته تتراءى أمامه، ولم ينتبه إلا حين حضرت مريم ورحبت به وبصالح، وسالها والد صالح: أين والدتك يا ابنتي؟ فأخبرته أنها مريضة.. فبادرها بسؤال آخر: هل لي أن أعرف اسم والدتك؟ فبدت الدهشة على الجميع، وحاول صالح أن يزيل حرج الموقف .

- إن أبي يريد أن نتعارف أكثر.

وحاول الأب حين رأى الحرج على الحضور، أن يؤكد على كلام ولده، بأنه لم يقصد إلا زيادة التعارف ليس إلا.

ثم انصرفوا على أن يأتوا يوم الخميس ويتمما الخطبة رسميا .

ما أن خرجا من باب البيت حتى استوقف الأب صالح وطالبه أن يعرف.

- أخبرنى يا صالح هل أمك ماتت؟

نظر إليه صالح ولاحت في عينيه دمعة: لمَ يا أبتِ فعلت هذا؟ لقد أصبتني بالحرج، ليتك صمت، ولم تنطق بما نطقت .

نظر إليه أبوه وبدأ يدمع هو الآخر .

- أريد أن أخبرك شيئا يا صالح وأخشى أن تقول أني انتكست مرة أخرى .

- يا أبت أياً كان ما ستقوله، ألم نتفق أن حالتك لم تشفَ نهائيا .

- استمع إلى يا بني، وحاول أن تصدقني .

- تفضل يا أبي، ماذا تريد أن تقول؟

- أتصدقني يا صالح إن أخبرتك أن هذا البيت بيتي، صدقني يا بني، لكني لا أدري من هؤلاء القوم وكيف سكنوه، ألم تلحظ أني وإياك انتهنا إلى نفس الصورة المعلقة؟!

نظر إليه صالح، نظرات بها الشفقة والضيق مختلطين..

- هيا يا أبي، هيا لنذهب إلى البيت .

انطلق صالح وأبوه نحو المنزل، دخل الأب إلى غرفته في صراع بين ما يدور داخله وبين تشكيك ولده من عدم اكتمال شفائه.

وذهب صالح إلى غرفة عمته، وسألها صورا له وهو صغير، فأخبرته أنهم لدى أمه استولت عليهم مع البيت، وأطلعها على ما حدث، فعزمت على الذهاب معهم يوم الخميس لترى حقيقة الأمر .

تجهز ثلاثتهم ليوم الخطبة، وما أن وصلوا قرب المنزل، وقبله بقليل، نظرت أمل إلى صالح وطالبته بالعودة.

- نحن في طريقنا إلى البيت بالفعل يا صالح .

- بلهجة حاسمة من صالح، كلا لن نعود، لن نعود!

- نظر الأب إلى صالح وهو يبكي.. لقد عادت إليّ ذاكرتي يا صالح أليس كذلك؟

- قبّله صالح على رأسه، نعم يا أبي عادت إليك ذاكرتك، وحان الوقت ليعود لك أمورا كثيرة .

حاولت عمته أن تثنيه عن الذهاب، خشية تطور الأمر لمَ لا يحمد عقباه،، لكن دون جدوى .

كانا قد وصلا إلى البيت، وهم على حالة الجدال تلك، طرق صالح الباب، فتح لهم كمال الباب، ووجدوا البيت ممتلئا بضيوف كثرومعازف تملأ جنبات البيت وصخب،

والكثيرون أتوا ليحضروا الخطبة ويتعرفوا على خطيب مريم .

ما أن دخل صالح إلى البيت حتى ترك الضيوف ومن ينتظره، واخترق الجميع وأخذ عمته نحو الصورة وسألها: من هؤلاء؟

انهارت عمته في البكاء: آه يا صالح، هذا أنت، وهذا أبوك، وتلك أمّك، وأنا التي صورتك تلك الصورة، كنت تقف على درجة السلم تلك، وحملك أبوك وأمك والتقطت لك أنا تلك الصورة .

اقتربت مريم من صالح، وسألته ما الأمر يا صالح؟ نظر إليها وسألها:

- من تلك المرأة الموجودة بالصورة؟

- أمي!

- وهي أمي أيضا، وأنا ذلك الطفل الموجود بالصورة.

- ماذا؟ ما هذا الذي تقول؟

نظر سامر إلى فارس وولده وبدأ يستوعب الأمر، فاقترب منهما وطالبهما أن يذهبا معه إلى غرفة مجاورة ليتحدثا على انفراد، والجمع الحاضر ينظر ويتابع والصمت سيد الموقف .

ما أن دخلا إلى الغرفة، حتى بادره فارس بالسؤال..

أريد أن أعرف كيف وصل إليكم هذا المنزل؟

وقبل أن يجيب، تدخلت أمل، ووجهت الكلام لأخيها .

أنا أقول لك يا فارس ما حاولت أنا وابنك أن نخفيه عنك خوفا عليك، رباب زوجتك لم تمت، رباب سرقتك واستولت على المنزل .

قاطعها فارس: مهلا مهلا، تذكرت، ذلك حدث حين جعلتني أوقع على بيع المنزل بحجة الضرائب وهكذا، إذن وأنت تزوجتها بعد ذلك أليس كذلك؟

- بلى، تزوجتها وأنجبت منها مريم، وكمال .

- وبصوت يملؤه الغضب: وسكنتما في بيتي، أليس كذلك؟! أين هي رباب، اين هي؟

في الطابق العلوي، تحاول رباب بمساعدة ابنها كمال، أن تجلس على الكرسي المتحرك، لتنزل إلى الطابق الأرضى، وتشهد الخطبة، ثم لفت انتباهها صمت المعازف والهدوء الذي ساد البيت فجأة .

- ماذا حدث يا كمال؟ لماذا توقف الغناء والاحتفال؟

- لا أدري؟ لعله تعطل شيء ما، ننزل ونرى .

بدأ كمال يدفع الكرسي أمامه، حتى أتوا إلى مقدمة السلم، فلاحظا أن الجميع ما بين جالس أو واقف في صمت، فنظرت له أمّه .

- يبدو أن هناك شيئا يا كمال .

- لا أدري يا أمي، الأمر مريب .

وبدأ يساعدها في النزول، ودرجة بعد الأخرى نزلت إلى الطابق السفلي، بدأ كمال ينظر إلى المدعوين مستغربًا هذا الوجوم على وجوههم، وسأل عن أبيه، فأشاروا إليه وإلى الغرفة المتواجد بها، وقبل أن يدير الكرسي بأمه ويتحرك نحو الغرفة، وجد أباه وكل من معه يخرج من الغرفة نحو الردهة.

وقعت عين رباب على فارس، فتسمرت، اقترب منها فارس ببطء!

- رباب، ها أنتِ على قيد الحياة.. اقترب منها.. خبر موتك لدي كان أخف وقعا مما علمت عنك .

وبصوت أخذ يهز أركان البيت: ما الذي فعلته لك أيتها الحية الرقطاء؟!

ما ذنبي لتستغلي مرضي وتتركيني أنا وذلك الولد المسكين سنين طوالا،

ما ذنبه أن لا يجد من يسهر على رعايته، ويصبح هو لي أبا يرعاني،

ما ذنبه أن يدخل بيت أبيه ضيفا، ويجلس الغرباء مكانه،

انظري إلى ذلك الشاب، إلى ذلك الرجل المتقدم لخطبة ابنتك، إنه ولدك، هذا صالح يا رباب، أتى ليخطب أخته يا رباب!

لا تزال رباب على وضعها المشدوه، والتفتت إلى صالح، وحدّقت بعينيها فيه، واغرورقت عيناها بالدموع.

- أنت صالح! أنت ولدي! صرخت بصوت عال: صالح، وأخذت تدفع الكرسي نحوه بهيستريا وهي تنادي عليه، وجذبته من ملابسه ودفعته إلى حضنها وهي منهارة وتبكي، وتردد: صالح، صالح، ابني .

انتصب صالح واقفا، وكفّف دمعه، وبقي ينظر إليها صامتا، فقطعت عمته أمل صمت المشهد، بلهجة حاسمة .

- أين حق صالح يا رباب، أين حقه وحق أبيه؟

لاحت منها نظرة انكسار وأطرقت برأسها إلى الأرض، وندمت على ما آلت إليه الأمور بسبب ما اقترفت يداها، وأخذت تتمتم وهي متوجعة سراً .

ماذا تنتظرين بعد ذلك يا رباب، ألم يحن أن يأخذ كل ذي حق حقه، وأن يكون لي توبة وإنابة لقد أصبحت مشرفة على انقضاء عمري ومقابلة ربي، لعلها الفرصة الأخيرة لاسترداد الحقوق، وعند هذه اللحظة انفجرت باكية.

- صالح يا بني، نعم لك حق علي، ولأبيك ألف حق، إن الله يغفر يا بني، سامحني وأعوضك كما شئت..

قاطعتها أمل، أعطيه حقه وحق أبيه، أعطيه بيته يا رباب، ويعوضه ربه عن سنين عمره التي عاناها..

- نعم هو حقه، ولكن أين أذهب أنا وأولادي وزوجي؟

- هذا أمر يخصكم أنتم .

- ولكني سددت لكِ ما يخص نصيبك .

- أعطيه لك .

- ألا يمكن أن تعطونا شقتكم الصغيرة، مقابل ما دفعت لكِ في نصيبك يا أمل، فلقد هرمت أنا وزوجي، وليس لنا ما يؤينا إن تركنا المنزل، وكذلك أولادي؟

يتدخل صالح في النقاش ليثني عمته عن تشددها مع أمه، لتقبل بالعرض .

- حسنا يا عمتي فليكن الأمر كما عرضت أمي .

- ولتسامحني يا صالح أنت وأبوك وتغفر لي .

- حسنا يا أمي، أما عن حقي فقد سامحت فيه، وأما أبي فليقرر ما يشاء.

- كلا يا بني تركنا لله الحساب .

نظر صالح إلى كمال ومريم وابتسم..

- لا عليكما البيت بيت أخيكم،

وإن شئتما ابقيا معنا، ثم توجه إلى مريم:

شئنا أن نرتبط بكلمة، ولكن شاءت إرادة الله أن يكون الرباط بالدم!

ثم أخذها وكمال في حضنه.

النهاية.

رسالتنا:

نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017